
محمد عزيز الحبابي
عضو أكاديمية المملكة المغربية
جيل الظمأ
رواية
طبعة جديدة

جبل الظماء

محمد عزيز الحبابي
عضو أكاديمية المملكة المغربية



رواية

طبعة جديدة

رقم الايداع بالخزانة العامة
1982 - 11

الطبعات السابقة
دار الشريف الانصاري
بيروت

الغلاف : فؤاد بلامين

الإهداء

إلى

اجيال العالم الثالث الظامئة ، إلى الحب والحرية ، في صراعها من أجل أنسنة جديدة للعالم .

الفصل الاول

ما زال النهـــار في اوله . مع ذلــــك بدا التعب على الاشخاص القليلين الذين يسيرون في الشارع . انهم يمشون بخطى وئيدة متثاقلة ، لا يتدافعون ولا يصدم بعضهم بعضاً . لا شيء هنا يشبه صخب الحيوية ، في مثل تلك الساعة ، في (لندن) أو (باريس) حيث الناس يهرولون نحو أبواب القطارات الارضية متزاحمين متألبين . لا شيء أيضاً يذكر بتلك الامواج المتتالية من البشر وقد سالوا من الضواحي نحو العاصمة ذات الجدران الرمادية والضباب القذر . هنا السكينة الشاملة تنشر نوعاً من الخدر يرتمي في احضان اللامبالاة .

(الرباط) مدينة جميلة بما تحويه من رواء وألوان ، لكنها تفتقر الى اعصاب تبعث الحركة والطموح والحياة . لا شك اننا لا نستطيع ان نرى من « حديقة التجارب » الرباط الفقيرة البائسة : العمال يسكنون في

حي «العكاري» و«دوار الدوم» و«مدينة التنك»[1]. هذا يعني أن هواء مدن التنك يستطيع ان ينشط الاعصاب ويشيع الحياة. لكن من الواضح ان تناغماً يربط بين حتيمة البؤس والعمل الدائب الحثيث.

آه! ما أمتع الحياة في الاحياء الثرية الجميلة، مثل «السويسي» و «ريزيدانس»...

*

مشى ادريس بخطى ثابتة، متأملا، رزيناً، دون ان ينتبه لكل ما في داخله من اصداء النهار المبتدىء. الرزانة تتصف دوماً بالحزن. تابع ادريس طريقه دون أن يلتفت الى الوراء فيأمن من خطر السيارات. لقد انغلق على افكاره لا يعير العالم الخارجي أي اهتمام، ولا يعترف بوجود ادنى شيء يخرج عن نطاق وجوده الخاص. دخل (حديقة التجارب) وما فتىء يتغلف بالرزانة نفسها التي تستثير الغيظ والحنق. وحالما استوى على الدرج، استقام له المنظر الساحر الخلاب. ليته توقف لحظات زهيدة يطيل النظر فيعجب لمرأى مدينة تطرد الكرى من أجفانها وترتدي ملاءة من النور والضياء!

---

١) او مدينة القصدير، كما تسمى بالمغرب (*Bidonville*)

نصاعـــة الدارات تخلع الصـــفاء على خيوط شمس الصبـــاح فتعكسها أوفر حناناً وأشد غبطة . صباح ربيعي الحواشي يذرذر السحر على مدينة الرباط كلها . لا سبيل الى رؤية البحر من شارع « أكدال » ، لكن الانف تدغدغه رطوبة المحيط الاطلسي والصباح وفصل الربيـع . (حديقة التجارب) تتنشق الاضواء في كل ما حوت من زهور ونباتات. في الماء المتدفق من احواضها ومن زليج الاروقة .

لم تنقض إلا عشر دقائق حتى قفل ادريس راجعـــاً . ترك (حديقة التجارب) ومشى ، وهو يقرأ الجريدة ، بخطى حثيثة دون ان يتخلى عن رزانته اولا مبالاتـــه بكل ما يحيط به . وحالمـــا ترك الحديقة وأراد أن ينتقل الى الرصيف المقابل ، اوشكت ان تصدمه سيارة انفلت عنانها ، فتطايرت ورقات الجريدة ، وعلا محيا ادريس امتقاع واصفرار فصاح به السائق :

— هل تنتظر السير في الطريق لتقرأ الجريدة أيها الأبله ؟

— معذرة ! معذرة !..

هذا كل ما تلفظ به ادريس ، وتابع طريقه دون أن يجمع ورقات الجريدة عن الارض .

عاد الى بيته ، بالخطى الرتيبة ذاتها ، دون ان تفارقه الرزانة الحزينة السوداء .

*

اتخذ ادريس من مؤخرة الدارة التي يسكنها ، مكتبة وضع فيها طاولة كبيرة للعمل . يقضي في هـذا المكان سحابة يومـه يقرأ ، ويكتب ويؤلف . ان مهنته ، او الهدف الذي يسعى اليه ، هو ان يصبح كاتباً أديباً .

تنقسم وتتباين آراء الناس حول آثاره الادبية ولا سبيل الى الحكم على ادريس ومواهبه بواسطة بعض مقالات نشرت في الصحف والمجلات . من الجائز ان تكون له موهبة ، ولكن عمله الحقيقي لم يبدأ حتى الآن . لم تمض بعد ، سنة كاملة منذ ان ترك الجامعة ، ومع ذلك فأكثر اصدقائه ، من ذوي الرجاحة في الحكم ، يشيرون عليه ان يلجأ الى وظيفة في احـدى الوزارات ... ان الحياة تستلزم الجهد وتصبب العرق من الجبـاه ، وتستدعي بلوغ الافضل والاجدر ، حالما تسمح الفرصة . ثم ان شهادات ادريس خليقة بأن تدر عليه ، على الاقل مـن ٣٠٠٠٠٠ الى ٤٠٠٠٠٠ فرنك ، في كل شهر ! زيادة على سيارة (الكاديلاك) والدار الفخمة ،

واشياء اخرى كثيرة ... يجب على من بلغ الخامسة والثلاثين من العمر ان يبني مستقبلا زاهي المعالم ، ويستقر في رتبة شرف وجاه عريض.

وهناك من بين اصدقاء ادريس فئة المثاليين :

– هل تدري يا ادريس كم لك من المواهب والمؤهلات ؟ لماذا تتلفها وتبددها ، شأن الكثيرين من مواطنينا ؟ عليك ان تصمد أمام اغراء الوظيفة والتشريفات لتنفحنا بأثر أدبي رائع .

ويبقى ادريس حائراً متردداً . لقد رجع الى المغرب منذ ستة شهور ، ومازال حتى الآن في دنيا من الحيرة والغموض لا يجد سبيلا الى الاختيار . سيول من النصائح والارشادات تتألب على رأسه وتستبد بعقله. الناصحون الكثيرون زجوا به في دوامة من الالتباس والتردد . ليس له الآن إلا أن ينفض القلم من تأليفه الاول الذي بدأ يكتبه ، منذ سنتين في القاهرة ، ثم يرى بعد ذلك أي تقدير سيفرده له النقاد وجماهير القراء .

وفيما كان يفكر في كل ذلك ، خلع سترته ، وارتدى طيلسان البيت ثم مشى وجلس على كرسي من جلد ، أمام مكتبه ، وراح يجيل النظر في كتاب تعددت صفحاته وتضخم حجمه ، فشرد نظره، واصابعه فوق الصفحات ، وقد بدأ يتغلغل في كيانه شيء من رزانة يرفدها خشوع عميق آمر .

ادريس اسمر اللون ، فارع القامة ، نحيل . لبس صداراً من (فانيلا) وربطة عنق مخططة ، وقد اضفى شعره الاسود المبعثر قوة على هيئته وملامحه فظهر كأنه متسلط، متحكم . واختفى جبينه البارز الفسيح وراء خصلة متمردة من الشعر ، بسطت ظلها على القسم الاوفر من وجهه المدور المنطوي على الاحاجي والاسرار . عيناه واسعتان سوداوان . أما شفتاه فمستقيمتان خططتا بنعومة ولطف تطلان على ذقن صغيرة متهدلة عنيدة . على وجهه قسمات فيها تشاؤم وغموض و كثير من التردد والعبوس . ولكن ذلك الوجه لا يبعث الغضب بل يفيض دعةوسكينة. فوق عينيه حاجبان كأنهما شاربان . أما انفه فمتناسب جميل لولا حدة الارنبة وارتفاعها مما يدل على اعتداد وشدة .

اثاث المكتب قشف بسيط ، ولكنه يوفر الراحة ، ويبعث على الطمأنينة . والطريق الى المكتب اما بواسطة باب ردهة البيت الواسعة او بواسطة باب ردهة صغيرة . من الصعب ان يفطن احد الى وجود الباب الثاني ، فقد قبع في مؤخرة الردهة ، جهة الحديقة ، مثل خزانة بدون مرآة . كثرت الكتب حتى غطت ثلاثة ارباع جدران المكتب هناك ايضاً نافذة رحبة تطل على الحديقة . على الحائط ، فوق مقعدالجلد، صورة كبيرة للملك محمدالخامس وقدلبس الطربوش الازرق الصافي المطوي في

الوسط ، وارتدى جلابة بيضاء ، وارتسمت علي شفتيه الرقيقتين آثار ابتسامة . ومقابل الصورة لوحة تمثل (صومعة حسان) بجوار مرآة ويومية يقرأ فيها « ٧ مايو ١٩٥٨ » وتاريخ السنة الهجرية الموافق. وفوق حصيرة تغطي ارض الغرفة استوت طاولة مدورة غطتها الجرائد والمجلات والملفات. وعلى يمين ادريس ملفات واوراق مختلفة مبعثرة على أريكة. وعن يساره كرسي لا عمر له ، ولا اثر للونه الاصلي ، وبلا نوابض . وعن يسار ادريس ايضاً تبرز طاولة للآلة الكاتبة بجانبها منضدة صغيرة تدور على لولب .

*

لولا رنات جرس الهاتف لبقي ادريس غارقاً في صفحات الكتاب الضخم لفترة طويلة . فاجأته رنات جرس الهاتف فأجفل . الهاتف على الطاولة ، في متناول يده ، ومع ذلك فقد بقي يتردد لحظات قبل ان يرفع السماعة . تهيأ للرد على من يكلمه ، ببرودة وفتور ، كمن يعوزه جهد خاص ليتناغم مع بيئة جديدة . ترك المطالعة ، واغلق الكتاب لاجتياز عالم الضجة والضوضاء، عالم الاصوات الطبيعية. عالم الآخرين... أخيراً مد يده وراح يتلفظ بكلمته الاولى : « آلو ! »

بعد فترة انفرجت اسارير وجهه . ثم قال شيئاً ما . لكن ماذا قال؟

التأثر يعصف به . هل سبب انخفاض صوته هو ذلك الشيء الذي قيل له شفتاه رغم كل ما حدث تتحركان . لا بد من بعض الوقت قبل ان يشيع في حديثه الهدوء والافصاح ، فيصبح من الميسور فهم ما يقول :

– آلو ! نعم ، استلمت الرسالة وقرأت حكاية حلمك الماتعة ..من المؤكد انني ايضاً ، اود واصبو الى ان يكون لي مولود خصوصاً اذا كان جميلا كالذي رأيته في الحلم .. يا للفرح ! طفلة تشبهك ... كيف ؟ أكيد ! يجب ان تذهبي ما دمت قريبة من المكان ، ولكن اذهبي للسياحة لا للحج الى الضريح . انها تفاهة ان نستعين بنذور لانجاب ولد ! تلك هي الوثنية بعينها ، يا حبيبتي ! ألا نستطيع نحن الاثنين ان ندبر امورنا دونما لجوء الى شفاعة الاموات ، حتى ولو كانوا من اولياء الله الصالحين ؟

*

ضربات خفيفة تتوالى على الباب . وبدون انتظار الاذن بالدخول ظهرت فتاة وتقدمت بخطوات وئيدة ناعمة ، وبعد أن حيت ادريس باشارة من رأسها ، جلست قبالة الآلة الكاتبة،واخذت تتطلع من النافذة بعد ان ادارت له ظهرها . ان حركاتها تعكس تصرفها الطليق من كل قيد ، المنبثق من غنج وحيوية وانفلات . هي سمراء

فارعة الطول ، ترتدي نصفية زرقاء وسترة من جلد الغزال . شعرها ، الممتد على طريقة ذيل الحصان ، تناثرت اطرافه فسقطت حتى الوركين. اخرجت الشابة من حقيبتها مجلة واخذت تتسلى بما فيها من صور . رأسها الصغير ينحني فيغرق ، في وساعـــة الصفحات ، عينين نجلاوين فاحمتين تشبهان في شكليهما حبتي لوز اخضر نضيج. عينان تتفتحان على زخارة من ذكاء ووفرة من بيان مع شيء من القسوة والقوة . ان السحر يكبل ويجمد، فما اكثر ما يكون السحر فظاً عاصفاً ! جعل خط ناصل نحيل من الكحل حاجبيها نصف مدورين، مثل الهلال، مما اضفى على سحرها سحراً جديداً. يصعب القول ، عن بعد ، بأن لفاطمة شفتين ام ان ما فوق ذقنها بقايا لطيفة من جرح بسيط . ليس في مقدور من ينظر في وجهـــها ان يحزر عمرها بدقة . هل هي في الثالثة والعشرين ؟ ام في الخامسة والعشرين؟ وجهها واحد من تلك الوجوه الملتبسة الغريبة . الاشعاعات المنطلقة من بؤبؤ عينيها تنم عن حدة الذكاء وتبرز شخصية قوية تنمو وتترعرع فيها الرصانة ويشيع منها انفلات يذهب بعبوس اكثر خلق الله حشمة ووقاراً .

*

تابع ادريس حديثه . الهاتف آلة مسكينة مسالمة مطواعة نستعملها للمهم والتافه ، على السواء .

ـ آلو ! .. هكذا كان ! من الثابت ان ماحدث كان هكذا ! .. اكيد ! ذلك هو كل ما حصل .. اكيد ! .. انا موافق تماماً .. موافق تماماً .. موافقتي كاملة.

فاطمة شاردة تتثاءب بضجة . انها تختلج وتحرك الكرسي كما لو كانت تسعى الى اخفاء شيء ما . صوب ادريس اليها نظرة ، وبعد لحظات ، عاد الى متابعة حديثه الهاتفي :

ـ ان في ذلك كل الحق .. نعم ، نعم !. حقاً !.

تمتمت فاطمة في غيظ وضيق :

ما اكثر السأم عند سماع هذا اللغط وهذه الثرثرة ! اما وجد الهاتف ليردد كل هرائنا وغباواتنا !..

ادارت رأسها نحو ادريس ، وهزت كتفيها في ضجر . فنظر ادريس الى جانبها ، فاذا بها تتفاجأ وتحمر ، فتأخذ في ترتيب بعض الاوراق .. ولكن ، خانت الحذاقة حركاتها فقلبت المكتب رأساً على عقب : القلم الاوراق ، المسطرة كلها تبعثرت على الارض فصرخ ادريس في وجهها :

ـ جميل ! حسن : لله ما اعظم قلة حذقك ! (ثم زاد في الهاتف) :

ـ الحديث لا يعنيك انت ، لا ، لا ، ياحبيبتي ! ..

واحتجت فاطمة ، وهي تدير له ظهرها :

ـ لن اقبل ، ابداً ، ان لا تحترمني يا سيدي ! انا سكرتيرة ولست حبيبة !

ـ ما دعوتك ، أبداً ، حبيبتي ، ايتها المتوحشة ! (ثم اضاف في الهاتف) ولكن .. اقسم لك ان ...

قاطعته فاطمة ، وهي لا تزال تدير له ظهرها ، فاحتج ، ثم اضاف في الهاتف :

ـ الامر لا يعنيك ! اقسم لك . لا تقطعي الحديث ! . تريثي ! . اشرح لك ! آلو ! آلو ! وضع ادريس سماعة الهاتف ، واستدار نحو فاطمة مغتاظاً .

ـ ما هذه الحماقة يا آنسة !

استوى واقفاً وراح يذرع الغرفة . فتركت فاطمة المجلة ووقفت هي ايضاً . ولما حاذاها ، نظر اليها وقال :

ـ ما كنت اظنها هكذا ! لقد رأيتها عند ولادتها ، ثم حينما اخذت تنمو وتترعرع ! ..

قطعت عليه فاطمة حديثه وقد استندت الى الحائط ويداهـــا وراء

ظهرها :

– لن اقبل ذلك ، أبداً ، يا سيدي . انا ..

– ما هو الشيء الذي لن تقبليه ابداً ؟ اريد ان اعرف ماذا تعنين ؟

– استطيع ان اجـد عملا في مكان آخر ! . انتم تدعونني اليوم « حبيبتي » وبالامس اغريتموني بوعود لم تفوا بها .

من ؟ انا ؟

– نعم ، انت ! (قالت فاطمة ذلك وهي تشير اليه بسبابتها)

– انا ؟ انا ؟

– اجل انت ! انت (واشارت اليه باصبعها من جديد) .

– انا ؟

– انت !

اسكتي ؟

صرخ ادريس في وجهها ، وقد صوب اليها نظراً قاسياً ليرغمها عـلى الاحترام والوقار :

– انك وقحة ! لا بد لي ان اطلع ذويك على وقاحتك ! فليس في قدرتي ان احتمل سلوكاً كهذا !منذ لحظة انتقدتني الآنسة عندما كنت اتحدث بواسطة الهاتف واقول : حبيبتي ...

فأعادت فاطمة بسخرية وهزء :

ـ حبيبتي ! بواسطة الهاتف ؟..

اجابها ادريس بصوت اصدى لدويه المكتب كله :

ـ دعيني اتابع حديثي ! لقـــد كنت اتحدث مع زوجتي بالهاتف والكلمات اللطيفة التي كنت أتلفظ بها حينذاك أسندتها ، بكل وقاحة ، لنفسك ! ها ... ها ... ه

ران الخجل على فاطمة وصبغ الاحمرار وجنتيها ، وقـــالت بصوت متردد خجول :

ـ ألا فاغفر لي غلطي وسوء فهمي .. اعترف ياسيدي بأنكم كنتم تتوجهون بحديثكم الى شخصين مختلفين في آن واحد . اما انا فاني مهتاجة الاعصاب في هذه الفترة ، وانتم على علم بأسباب ما يحدث لي ..

تابع ادريس حديثه كمن لا يسمع شيئاً :

ـ ولكن الآنسة ، لأمر ما ، تزعم اني وعدتها بأشياء ! ما هـــذه الافتراءات الصبيانية ؟

ـ من حسن حظي اني احتفظت برسالتكم !

أخرجت من حقيبتها رسالة ، وتابعت تقول : ان يدكم الكريمـــة كتبت هذه الرسالة ، وعنونتها باسمي . ثم هي مؤرخة وتحمل توقيعكم ،

هي بطاقـة زيارة حوت كل ألقابكم الجـامعية ! (ثم أردفت بصوت جهوري) :

– حامل الماجستير من القاهرة ، دكتور من السوربون . وبعد ذلك يأتي عنوانكم ورقم الهاتف . واخيراً النص الذي شاء لطفكم أن يتوجـه به الي !

– دعيني انظر ذلك ! ناوليني هذه البطاقة !

وسرعان ما أعادت فاطمة البطاقة الى حقيبتها وقالت :

– لا ، لا ! انها وثيقة مهمة بالنسبة الي !

– أهكذا توالين الثرثرة وتختلقين الاكاذيب حول توقيعي المزور ؟!

يا للهول ! أدار لها ظهره ، وتوجه نحو مكتبه . رافقته فاطمة بنظرها ثم قالت بهدوء ساخر :

– اظنكم رجلا يحترم عهوده ، لقد نصحوني بأن احذر اهل العـلم والثقافة . خبثهم يزداد بنسبة ما يحملون من شهادات . فاذا كان المال ينفخ اصحابه عجباً ، فالثقافة الحقة تهب النفس الصدق وطهر السريرة . ولكن الواقع ان دنيا المثقفين زاخرة بالشعوذة والألاعيب . كل شيء يجد ، عند ذوي الثقافة ، تزكية وحجة وتبريراً ...

– كفى !

صرخ حنقاً منفعلا ، ثم سأل :

ـ ما هو الوعد الذي تعنين ؟

أجابت فاطمة مبتسمة برباطة جأش :

ـ هل تسمحون لي بأن أقرأ؟

وتناولت البطاقة من جديد :

ـ « عزيزتي فاطمة . سأكون وافر الحزن اذا مشكلة المال ... »

تنفس ادريس الصعداء كمن ازيحت عنه تلال من الاوجاع ، وقال :
فهمت الآن ما تعنين ! كان عليك ان تنتهجي الوضوح ، منذ البداية !

ـ استأذنكم في متابعة القراءة حتى اعيد الى ذاكرتكم ما غاب عنها .

أقرأ : « مشكلة المال » . كنت وصلت الى هنا ، استمعوا يا سيدي « تريدين ان تكفي عن العمل معي ، ذلك التعاون الذي اقدره كثيراً . فأنا اعرض عليك زيادة ١٠٪ ، ومن جهة اخرى ، نظراً لحالة والدك الصحية ، فاني اسلفك ، كما طلبت مني ، مبلغ ٥٠٠٠٠ فرنك » . وكتبتم المبلغ بحروف كبيرة ، ووضعتم تحتها خطاً بيدكم . لنرجع الى النص « سلف خمسين ألف فرنك ، في بداية كل ثلاثة اشهر ..

ارتسمت على شفتي ادريس ابتسامة حزينة ، وقال بصوت خفيف :

– لكن يا فاطمة لم يكن اول الشهر إلا يوم السبت الماضي !فلنؤجل القضية الى غد .. اشارت فاطمة الى اليومية ، على الحائط وقاطعته :

– نحن الآن في اليوم السابع من الشهر ! غداً يوم الخميس يوم عطلة . عيد سنوي .. (وحاولت ان تتذكر) .

حسناً ! بعد غد ..

– بعد غد يوافق يوم الجمعة ، وانتم تعلمون يا سيدي انه يوم صلاة الخطبة ، يوم عيد المؤمنين . والسبت ايضاً عطلة : عيد مواطنينا اليهود . ويوم الاحد يغلق المصرف ابوابه . وهكذا ينتهي بنا المطاف الى اليوم الثاني عشر من الشهر ! ومن يدري ربما يكون ، يوم الاثنين العاشر من الشهر ، هو ايضاً يوم عطلة : يوم حداد عمومي ، مثلا ، او يوم عطلة تكريماً لوفادة احد الوزراء الاجانب على المدينة ! على كل حال ان والدتي مستاءة كثيراً لأني لم اشتر حتى الآن الدواء لوالدي وانتم تعلمون، اكثر مني يا سيدي ، ان الاطباء يعطون الاسبقية للمال على العطف والشفقة والحنان ، وان الصيادلة من جنس لا يسلف ولا يقرض !

سأسلفك المبلغ عن طيبة خاطر .

– استعاد ادريس رزانته واضاف :

لا شك انك قد تعلمت في دروس الفلسفة ان على الانسان ان يلتزم

دوما في الامور اواسطها متجنباً التفريط والافراط .

اكتسى صوته غنة الحنو والنعومة، وتابع:

ـ في مثل عمرك ، ما اسرع ما يثور الانسان وتستبد به الحماسة .

ـ من دواعي حسن الحظ ان ابناء امتي يحيون فترة تنتصر فيها الحماسة على التمرد ، فترة فيها الثورة مرادفة للثقة بالنفس ، ومرادفة للجرأة من اجل القيم العليا .

ـ لا فض فوك ! ما اجمل المستقبل الذي ينتظر شباب هذه الايام !

ـ الحاضر اكثر جمالا من المستقبل ، ياسيدي. ان الابطال الحقيقيين نجدهم بين الذين يصممون ويخلقون ذلك المستقبل ، في كل ما يأتون من اعمال ، كل يوم . اما الذين سيرثون مجهوداتهم فهم اخف وزناً واخف اشعاعاً في دنيا البطولة والابداع .

ـ اوافقك تماماً . الجهاد لا تسجله صفحات التاريخ إلا إذا صدر عن وعي ونزاهة واخلاص . ومن هنا ينطلق عمل المثقفين وجهدهم: التوضيح، الافهام ، التوعية .

ـ رغم كل الاحترام الذي اكنه لكم ، ولفئات امثالكم من المثقفين، اسمحوا لي بأن أسأل (وتعمدت الوضوح في كل كلمة) :

ـ من هم الذين يبررون الجرائم الجماعية ؟ من هم الذين يحتقرون

السذج والبسطاء وحياة الطبقة الكادحة؟من الذين يدعمون نظام الاستغلال ويحرقون البخور على اقـــدام حديثي النعمة ، فالمواطنون الذين ظفروا بدبلومات ، والاغنياء الجدد الذين فازوا بالثروات ، كلهم يحتقرون من لا يستطيـع إلى الثراء سبيلا .

مع الاسف ، المثقفون ! اجل المثقفون ، لا سواهم . هم حماة الزيف المجتمعي والانحراف الاخلاقي ...

– اظن ، لك ثأر عند المثقفين ؟ أليس كذلك يا فاطمة ؟

– من الاكيد : لا . ولكني كثيراً ما ألمس صحة ما قدمت لمس اليد . النظم والاساليب التي يأخذ المثقفون بها تصدمني وتستصرخ انفعالي وغيظي . يبدو ان المثقفين أبعد عن ان يتفهموا شقاء او سعادة الفئة الفقيرة البائسة . لأنهم يعيرون الانتباه كله والعناية كلهـــا لصخب وضجيج سفسطات الاغنياء وذوي المكانات . ان المال والرتب والسلطة لا تزال هي الآلة المتجبرة في ديارنا . فاذا كان عابدوا « عجل الذهب » من الاثرياء فلا شك ان سدنة الهيكل المجدين ورسله الغيورين هم المثقفون !

فقاطعها ادريس بلهجة من يلفظ حكما مبرماً ، بلهجة الاستاذية :

– ان ما قلته لا يخلو من رجاحة وصدق . ولكن العيب في اقوالك هو الشمول فقد يتخذون من ثقافتهم المزيفة الضحلة ستاراً لتغطية ماتحت

جماجمهم من بلادة . فأنا اعرف بين هؤلاء من يؤمنون بحتمية التحليل المنطقي او الرياضي ايمانهم بالعقيدة الدينية ممـــا يجعل وجدانهم جافاً . انهم منهمكون في عبادة النفس متجاهلين الغير . وهناك آخرون اكتفوا بالثقافة العقيمة فافتقروا الى النضج واستكانوا الى عقلية الاطفال . انهم جميعاً يشكلون ، بدون شك ، خطراً وخيما على الامة كلها . الثراء ألفهم وياؤهم في الحياة ! آه ! لو كان ذلك المال الغامر الذي تكدس بلا تعب يحرق اصابعهم ..

فصاحت فاطمة بحيوية ، مع ابتسام ساخر :

– إذن ، لما كفى ما في المغرب من دهون وادوية لتضميد الاصابع المحروقة ...

ضحك الاثنان ، وتابع ادريس :

– لكن ، مما يبعث على الفرح اننا نجد جمهرة من المثقفين الحقيقيين يستمدون قواهم وعزمهم من ثقتهم بالمستقبل ، يريدونه زاهي الجوانب ، صافي الآفاق . هكذا ينقسم المثقفون الى فئتين ، الذين يبحثون في الثقافة عن قبس العمل المجدي ، وعن التقدم المثمر ، ثم الذين يبحثون في الثقافة عن طلاء يخفون وراءه نقصانهم . ان صاحب الثقافـــة الحق خصم عنيد للدجالين والمشعوذين . فلكل شيء مقياس ومستوى : هناك الثقافة التي

تبلغ مستوى الانسانية ، وهناك الثقافة التي تبقى عند مستوى الافراد لا غير .

– انك رائع في كل ماتقوله ياسيدي . فالانسان يتعلم اشياء بقربك، أرى انك طيب القلب . يذكرني حديثك بالدروس الفلسفية ، فقد كنت اجد فيها اللذة والغبطة . ولا مندوحة من الاقرار بأني احب ان اصغي اليك وانت تتحدث في مواضيع كهذه .

وراح ادريس يتابع الكلام في لهجة الاستاذ الجامعي :

– ان كل مدينة يتهرب مثقفوها من تحمل المسؤوليات ، لا بد ان يسود فيها الظلم ويسيطر الافك : المجرمون يجدون من يبرر افعالهم والابرياء لا يأبه لهم احد .

– اذن ، على البريء ان يكون قوياً ليمرق الى صفوف المجرمين فيسلم من الاخطار ! فعندما يخون العلم رسالته لا بد ان يستعيد الغاب حقوقه .

– المقصود ، كما تلاحظين ، هو ان نبذل ما نستطيع من جهد ، ترفدنا الثقة الرسيخة بأن الافضل والاجمل لا حدود لها . فليكن شعارنا التقدم ، والتقدم دوماً . كلنا مسؤولون عن البشرية .. اريد ان اقول بأننا ملزمون بأن نستفيد مما فينا من قدرات لنعيد للعقل والقلب حقوقها

وسيطرتها على اعمالنا وافكارنا. فبما ان القرآن الكريم يقول : «الاقربون اولى بالمعروف» يتحتم علينا ان نطور بلدنا وشعبنا ، وقبل ذلك ذواتنا.

*

تتابعت ضربات على الباب ، فطلب ادريس من فاطمة ان تسرع فتفتح . وسارت فاطمة نحو الباب ، ثم وقفت واستدارت نحو ادريس قائلة :

– ربما تخليت عن تشاؤمي في يوم ما ، وميزت مثلك بين المثقفين الحقيقيين والمثقفين الدجالين . وعلى كل حال لن اثق بالمثقفين الا يوم اراهم يجازفون برتبهم ، وحتى بحياتهم ليخلصوا الحقيقة من براثن الكذب ، والسياسة من الغوغاء والرعاع .

وتقدمت نحو الباب ، وعندما وضعت يدها على المزلاج ، نظرت الى ادريس وقالت :

– مع الاسف الشديد لن يكون ذلك في الغد القريب !..

ثم فتحت الباب .

الفصل الثاني

وجدت فاطمة ، وراء الباب شاباً في مقتبل العمر وشيخاً ذا وجـه متغضن نحيل ، احتلت ثلثيه لحية مسترسلة بيضاء ، يلبس جلابـة لفت جسده من الرأس حتى آخر القدمين ، وغطت رأسه عمامة اختفى تحتها قسم من جبينه البارز العريض . كان الشيخ يحمل عـلى ظهره كيساً صغيراً .

لقد جند نفسه بشغف عظيم للاخلاص الى مهنته ، منذ صِباه ، واستقام له الامر فأصبح منذ بلغ عامه الخمسين سيد نفسه ورب العمل المستأجر . هو الآن في عامه السبعين وهل معنى ذلك انه في اوج العمر ؟ يقيناً لا . ألم يسمح الله لنوح بأن يعيش مئات ومئات من السنين ؟ فالله قدير على كل شيء ، ولا حول ولا قوة إلا بالله سبحانه وتعالى. اذن ، اصبح «معلماً» في سن موافقة ، ولكن حذقه ومهارته يبعثان على الدهشة . ففي (الرباط)

كلها ، وحتى في (سلا) يلهج الناس كلهم باسمه ويتحدثون عن مهارته . اجل انه منجد اصيل . وراء الجلابة القطنية يخفق قلب « معلم » جبار عظيم ، معلم من سلالة جدود صناع ، مهرة حاذقين . ففي مقدوره ان يسميهم واحداً واحداً . كان هؤلاء الاجداد الافذاذ يعملون في قصر « فاس » الفخم ، عند اصحاب الجلالة ، رضي الله عنهم . آه على الماضي الجميل ! ..

ان شيخنا فخور بمحتده ، مدرك لما في مهنته من نفع اكيد شامل . أليس هو الذي يوفر الراحة لعظماء هذا العالم ولعيالهم ولضيوفهم ؟ كيف يستطيع الناس سبيلا الى النوم لو انه لا ينجد لهم الفراش ؟ وغني عن البيان انه لا ينجد إلا الفراش الوثير المريح ! الفارق جلي ظاهر بين عمل وعمل ، وبين فن وفن . لقد استحدثت اشياء كثيرة .. ولكن الناس سرعان ما سيعودون الى الفرش القديمة ، بعد ان يظهر لهم ما في « الرسورات » من اساءة الى صحة الجسم وراحته . واذا كان اجدادنا لم يستعملوا فراش « شركة سيمونز » فلأنهم عرفوا كيف يميزون بين المتعب والمريح النافع والضار .

ما اجملها مهنة ، مهنة المنجد ! .. لذلك يعمل الشيخ جهده ليجعل من ابنه منجداً حاذقاً ماهراً ، وليصبح ابنه « معلماً » نظير والده ، حال بلوغه فترة نضج العمر عندما تستقيم له الحكمة والدراية ، اي بعد مرور

ثلاثين سنة ... ولا بـــد من حدوث ذلك بعون الله القدير ومؤازرة أولياء الله ذوي الفضل والبركة، ومن الاكيدان يكون الناس قد أدركوا في ذلك الوقت، كل مـــا في فراش «سيمونز» من خـــلل واعتوار وأضرار.

*

وبينما الشيخ يسبح في تأملاته تلك، كان ابنه الى جـــانبه ينتظر في صمت. شتان ما بين الولد ووالده من حيث النظر الى الاشياء والامور. اعتمد الابن نظما ومبادىء تتنافى مع كل ما اخذ باهتمام والده. ولكنه لن يزيح ثقل النير الابوي عـــن كاهله إلا بعد ان يبلغ سن الرشد. انه الآن في عامه العشرين. سيشق طريقه في الحياة على ضوء واقع البيئة التي يعيش فيها. ثم اذا كان لا يقص شعر رأسه، نظير ما يفعـــله والده، واستعاض عن الجلابة بالسربال فذلك ليبتعد عـــن التشبه بالقدامى، او بنصف القدامى مثل اخويه البكر والاوسط. وليقوي من مدى تحرره وتفوقه، عمد الى وضع النظارتين السوداوين على عينيه، والى تأبط المحفظة النظيفة اللماعة. وعندما كانت تتزاحم برأسه هذه الافكار ارتفعت يسراه الى النظارتين تثبتهما وتنحدر عيناه الى المحفظة اللماعة بنظرة اعتزاز.

وتذهب به افكاره، فيقول في سره.

- كم يثيرني ان ارى والدي يحول جاهدا بيني وبين متابعة الدروس ليجعل مني منجداً.

ويلتفت نحو والده يرشقه بنظرة ملؤها الحنق والحسرة والألم ، ثم يضيف مخاطباً نفسه :

- لقد حصلت على شهادة الدروس الابتدائية ، لكي أهيء لي عيشاً افضل ومركزاً يتناغم ومكانتي كمثقف . ان القضية تتعلق بمستقبلي انا ، بحياتي انا ، بذاتي انا ! « إيوا » ! .. ان الولد يجهل حافز والده نحو تقديس مهنته ، مهنة عديمة المستقبل قد مثل فيها منذ زمن بعيد . زد على ذلك ان الناس لا يحترمون اصحاب الحرف ، وان الحرف ..

- ثم ما الذي يمنع شهادة الدروس الابتدائية من ان تفسح لي المجال الرحب لأصبح موظفاً يشار اليه بالبنان؟ وما رأيك اخيراً بالبزة الخضراء؟ مفتش في الأمن العام ! ...

وتصور المنجد الغر الصغير ذاته يصدر الاوامر فيطاع . فرأى جندياً ماثلا أمامه يؤدي له التحية .

- يا جندي ! أخرج السيارة وانقل زوجتي والاولاد الى شاطىء (ثمارا) . ان لأولادي الحق في النزهة ولا تنس ان تراقبهم باهتمام ويقظة .

- نعم ، سيدي المفتش !..

ولماذا لا اصير قائداً او اعلى من قائد ، او بالاحرى احد الوزراء ؟ شرف ، مال ، سلطة ونفوذ !...

سيكون لي البيت الجميل المجاني ، ثم الطباخ ، والسيارة مع السائق . وما قولك بالضمانات ؟ والتعويضات المختلفة الكثيرة ؟ .. هيه !...

راح يتفحص الملفات في مكتب وسيع مريح . ورأى نفسه يتحكم بالهاتف كما يشاء ، وبالضغط على زر مكيف الهواء ، او ينادي الجنود والخدم .. ثم تنهد وقال في نفسه :

ـ ذلك محال وصعب المنال !... فهل لمن يحمل مثلي شهادةالدروس الابتدائية حق في رتب ووظائف ممتازة ؟ لقد قيل لي بأن هذه الوظائف من حق الذين لا يحملون الشهادات !... على كل حال هي وظائف تستهويني جداً ، ومن المعهود عندنا ان الشهادات لا تطلب إلا من ذوي الوظائف البسيطة والرتب الخفيضة . اما للحصول على الوظيفة العالية فالمحسوبية تكفي ...

شاب غني بأحلامه !

احلام جميلة يتخطى فيها الحاضر ليرى ذاته رجلا ذا مسؤولية في مستقبل مضيء جليل . ولكن ، هيهات !.. انه لا يفتأ « الولد » و « الصغير » في عين والده ، والحدث الطائش غير المسؤول أمام المجتمع

والقانون . رغم ذلك ، قد يكفيه مرور سنتين حتى يقطع كل آصرة بينه وبين مهنة لا مستقبل لها . يريدون ارغامه على احترافها ، ليكون جباراً على كل ما تواطأت عليه الاسرة فينتخب وحده ما يراه ملائماً لرجل يحمل شهادة !

*

لمح الشيخ في الممر مخدة من جلد ، على مقربة من باب المكتب ، فاقترب منها . وبعد ان استجدى الاولياء والصالحين الخير والبركة ، رفع أردان الجلابة ، وقعد على الارض مرتفقاً المخدة ومسنداً ظهره الى الحائط فظهر من وراء فخذيه المشبكتين الضخمتين سروال منتفخ عريض مثل معزف يدوي عندما يتفتح . صدرت عن الشيخ اشارات غامضة سريعة ، ثم حرك يده ، واخذ يتمتم بالدعوات . وبعد لحظة انزل العمامة عن رأسه ووضعها على ركبتيه اعتقاداً منه ان مرور الهواء النقي على الرأس يساعد على التنفس المنتظم . آه ! لقد فارقته خفة وقوة الماضي الماتع الجميل يوم كان في ريعان الشباب ! نظر الى ابنه نظرة ضمنها الاعجاب والغبطة . كانت مهنة المنجد ، في شبابه ، سبيل مجد وفخر ، لا تفوقها رفعة وقدراً إلا رتبة الوزير ، او القاضي . وتوالت انامله تلامس خرزات السبحة بينما بقيت يمناه ترتفق مخدة الجلد وفخذاه مشتبكتان .

دمدم الولد بعد ان رمق والده شزراً ، هؤلاء الشيوخ ديدنهم اللامبالاة !. وتمنى لو استطاع ان يقول لوالده رأيه فيه !

انه يتميز غيظاً ويتفجر حقداً على والده. ألم يمنعه من متابعة دروسه؟ انه الوالد الجهول الذي يعترض سبيل الابن المثقف في الوصول الى المجد والغنى ، والسلطة، الى السبيل الموصل الى ابعد بعيد ، الى دنيا الجاه ، والمستقبل .

الشعور الانساني ، الثوره البناءة ، الطموح الشريف ، هذا ما يجهله والده تمام الجهل . حبذا لو شعر بوجود تلك المفاهيم . على الاقل ، قد تأكد وتثبت وجود عالمين مختلفين ، يتضادان ويجهل احدهما الآخر . مفهومان متباينان للعالم ، وصورتان متنافرتان متباعدتان للانسان : حياة مغلقة على ذاتها ، لا طموح فيها ولا جرأة ، وحياة زاهية ، ملؤها الامل المشرق البسام . ولكن ، انى للوالد القانع بما هو عليه ، ان يفهم او يتبين سأم وتحرقات ابنه ؟ وكم مرة صاح : يا فئات الشباب ! لو ادركتم مدى شرودكم لحسدتمونا ، نحن الشيوخ ، على ما ننعم به من هدوء وراحة بال ، وما ذلك الا من فضل الله ورضاه .

*

لولا ان فاطمة فتحت الباب لطال الوقت والمنجدان يسبحان ويهيمان

في اجواء الخيالات والاحلام . انها ايقظت الفتى من حلم ورمت به في احضان حلم جديد .

الصبيحة مشمسة دافئة ، يتغلغل فيها مناخ معتدل مثقل برواء الربيع المغربي . أليس في خصب شباب الفتى ويناعة فاطمة ، وفي اشراقة الحياة ونضارتها ما يفسح المجال رحباً لدنيا الخيالات والاحلام ؟

اغرق المنجد الشاب نظره الازرق الرقيق في عيني فاطمة السوداوين، وابتسم لها بتعلق ولطف ، ابتسم لأحلامه البعيدة ولأحلامه القريبة ، وانكشفت له الحياة فجأة تتماوج بشراً وسناء . طفحت ابتسامة الشاب في اغراء وعلا الدم الطليل في وجنتي فاطمة وارتاحت لمنظر وسحر شبابها الخضال. ان في انوثتها زهو الربيع واغتراره ، ومع ذلك فهي كثيرة الخفر والحياء، دائمة التخوف والعزوف عن كل ما يشين الطهر والشرف. ليت الفتيات جميعهن يصمدن امام زهوة الربيع وليت الشباب كلهم يعرفون كيف يحترمون الزهور والورود فلا يهدرون عطرها وشذاها !

*

اعتذرت فاطمة للمنجدين عن تأخر ادريس عن استقبالهما فوراً فقد شغلته مكالمة هاتفية ، ثم أدخلتهما الى المكتب وغادرت المكان بعد ان غلقت الباب وراءها . ولم يفتها ان تبتسم لهما ، قبل مغادرة البيت ،

ابتسامة مقتضبة تزخر لطفاً وغنجاً .

تقدم ادريس من زائريه وحياهما :

ـ السلام عليكم ، اهلا وسهلا !

بعد ان خفض الزائران من رأسيهما ، يردان التحية تقدم الولد بخطى ثابتة من ادريس ، وصافحه قائلا :

ـ عليك السلام ورحمة الله . ان زوجتك قد استقدمتنا لنصنع لها فراشاً .

ادريس متعجباً :

ـ ولكن زوجتي لم تحدثني بذلك ابداً !

ـ الفراش الجديد سوف يكون ، كما تعلم لطفلتك الصغيرة .

ـ طفلتي الصغيرة ؟

ـ هو ذلك يا سيدي .

ـ ولكن اية طفلة ؟

ـ طفلتك انت !

ـ لا طفلة لي !

ـ آه ! حقاً ، الطفلة التي ستولد !...

ـ ولكن ماذا ؟ هل سنهدر الوقت في جدال حول الاطفال ؟ولمن؟

ارجو المعذرة .. ماذا قلت ؟ السيدة ... لاجل .. الفراش ... الطفلة طفلة ؟ من الجائز انكما لم تهتديا الى البيت الذي تريدان الذهاب اليه .

فأجاب الشيخ بصوت خشن مبحوح :

ـ هل تظننا مـــن المشعوذين ؟ انني اعرف البيت ، واعرف كل المدينة ، بكل ازقتها ودروبهـا . استطيع ان اسمي لك كل زقـاق وكل شارع كبير . فهذا الشارع تربطني به اواصر الفة رسيخة الجذور . فأنا اعرف عائلات الرباط النبلاء واحدة واحدة. والدك هو الحاج قدور بن الحاج احمد ، وقد تزوج ، للمرة الاولى ، بابنة الحاج عزوز بن الحـاج محمد ورزق منها بولد . رباه ... كم كانت رائعـــة فخمة . الحقيقة ! (آنذاك ، هز الشيخ رأسه ، ورفع يده الى السماء) : الله ! مـا أمتع تلك الايام وما اجملها ! عهود من الازدهار والافراح ! اما انتم ، شباب اليوم ، فما نعمتم بشيء .

لاحظ الشاب ان والده لم يكف عن سرد ذكرياته فأسرع يؤاخذه:

ـ أتينا نصنع فراشاً لا لنسمعك تحكي ذكريات ايامك الغابرة !

فرد الشيخ بامتعاض :

ـ الاجدر بك ان تخفض من صوتك ، ايها الطفل الغر ! في الماضي لم يكن الابناء يرفعون أصواتهم بحضر الآباء ...

– اجل ، لكن الوالدين كذلك لم يكونوا يصيحون في وجه أولادهم !

– انت تسعى الى قلب النظام الطبيعي رأساً على عقب . فأجيال تحتقر الشيوخ ولا تحترم الوالدين والتقاليد ، لا بد ان تجر علينا اوخم العواقب. فأنتم الذين تستنزلون على رؤوسنا لعنات من السماء والغضب ، فالجنوب قد اجتاحه الجراد ! وكما ذكر لي شيخ وقور ..

قاطعه الولد بعنف وحنق :

– لا بأس ! قص على مسامعنا سيرة حياتك ! ان الوقت ملائم مناسب !

واستدار نحو ادريس :

– فلنعد الى موضوع فراش ابنتك ، ايها السيد .

فأجاب ادريس بلطف وادب :

– اية ابنة تعني ؟ لم يقل احد حتى الآن ان لي ابنة !

– اظن ان زوجتك تنتظر ولادة طفلة ، وهي تود تحضير كل شيء من قبل .

فرد ادريس بجدة :

– افهم من حديثك ان زوجتي حامل ؟

– انت اعلم بذلك اولا واخيراً ، يا سيدي .

ضاع من ادريس اتزانه العادي : ان ادريس « الاستاذ الدكتور » كما نقول في المشرق ، او العالم العلامة البحر ، كما نقول في المغرب ، قد استبدت به البلاهة ، ولم تفده ثقافته شيئاً في تفهم الوضع وحله . اما الشيخ فلم يعر حديثهما الا بعض انتباهه فقد شردت عيناه على الكتب الجاثمة في رفوف المكتبة وعلى المقاعد الوثيرة وعلى الآلة الكاتبة الجديدة . وحالما وقع نظره على رسم الملك تساءل : اطال الله في حياة سيدنا . ثم انحنى للمرة الثانية ، وتمتمت شفتاه تستمطران بركات الله على صاحب الجلالة .

فقال له ابنه بصوت خفيف ساخر :

ـ صاحب الجلالة لا تهمه انحناءاتك . كان من الاجدربك ان تتبع اوامره السديدة ونصائحه الرشيدة ، فتسمح لأولادك ان يتابعوا دروسهم ولبناتك ان يتحررن ، كما تحررت الاميرات .

فأسرع الشيخ يخرس ابنه باشارة عريضة من يده ، وبعد ان صب عليه نظرات الازدراء ، التفت نحو ادريس :

ـ حالتك تذكرني بما حدث لحاج من اصدقائي القدامى . حدث ذلك في عام التيفوئيد . ما زلت اتذكر ذلك لان تلك السنة كانت لها خيرات وبركات لشقيقي حفار القبور . حميره كلها ، نعاجه كلها ،

وباختصار كل ثروته الغزيرة ، حتى زوجتاه اكتسبها في تلك السنة ...
ولسوء الحظ لم يشرق الازدهار على اخوة شقيقي كلهم . لقد طالب الناس بحفر قبور كثيرة ، دون ان يطلب واحد منهم صنع فراش واحـد .
وأود ان تنتبه لما اقول ، كان اخي حفار القبور الوحـيد الذي يلبي كل الطلبات : مهارته في حفر القبور ومؤازرة التيفوئيد اتاحتاله زبائن كثيرين لا يحصون . كما يعمل بجزم في مقـابر الرباط وسلا بسلطة مطلقة .

عيل صبر الشاب ولم يقو على كظم الغيظ ، فصاح :

– انك تجهل كل مراعاة لمقتضى الحال ولقيمة الوقت . أليس الوقت من ذهب ؟

ايجوز لك ان تتحدث عن الاموات وعن التيفوئيد في بيت يستعد لاستقبال مولود جديد ؟

قطع ادريس عليها الكلام ليؤكد انه لا وجود لأي مولود جديد في البيت ، وانه لا يؤمن بالوساوس والخيالات والخرافات . ولكن الشيخ تابع حديثه ساخراً من ولده ، آخذاً عليه انه رغم تعلمه في المدرسة مادة التاريخ التي تتحدث عن الحروب وفناء الالاف من البشر ، يمانع اباه في حكاية اخبار ، هي من التاريخ كذلك . اما هو ، فأي ضير عليه؟ انه يحكي قصة شقيقه ... وهل يجوز للولد ان يلم ويحيط بسير الامراء

والقادة الوثنيين ولا يجوز له ان يتعرف الى حياة اجداده الاتقياء الورعين، ويجهل كل شيء عن ثروة عمه الواسعة ؟

... ثم تابع الشيخ الحديث كأنه يستبشر ما بقي من زهيد الصبر في صدر سامعيه . واستطاع ان يفيض في وصف الازدهار العجيب الذي رافق سنة التيفوئيد المباركة .

أسكته الولد بقحة بالغة ،

ـ كلامك تافه فارغ ، لا يهم احداً ..

والتفت نحو ادريس وتابع .

ـ اننا لا نحب ضياع الوقت يا سيدي . هيا اعطنا الصوف الذي سنصنع منه فراش ابنتك .

ـ اية ابنة ؟

ـ اذن ، لنقل الابن !

ـ اي ابن ؟

ـ الطفل ، الطفلة ، الولد . كلهم يؤلفون عائلة واحدة . انت تعلم جيداً ان فراش الطفلة ..

ـ لا ، يا سيدي . انا لا اعلم شيئاً .. الحقيقة ..

ـ عجباً . لقد اطلعتني زوجتك على ذلك منذ بضعة ايام !

فصرخ ادريس مذعوراً قلقاً :

– ماذا ؟ زوجتي ارتك ذلك ؟ افصح يا هذا ! منذ لحظات كنت تقول بأن البنت ستولد ، وها انت الان تقول انك رأيتها !

– ماذا اصابك يا سيدي ؟ الحديث عن الصوف ، صوف الفراش !

اضاف الشيخ :

– ثم ان الفراش للطفلة ، هل فهت الان ؟

ارتمى ادريس على اقرب كرسي بجانبه ، واخرج من جيبه غليوناً وكيس تبغ وعلبة ثقاب . وبعد ان ركز نظارتيه على عينيه ، حشا الغليون بالتبغ ، واشعله وراح يتأمل تلافيف الدخان بنهم وشره ، وتردد قبل ان يقول معتذراً :

– اجل ... سأسأل زوجتي . اني سأحدثها عن ذلك .. فصاح الولد مستفسراً :

– عم ستتحدث اليها ؟

– عن قضية الطفلة !

– اية طفلة ؟

– طفلتي !

– ولكن ليست لك طفلة .

ـ انت قلت ان لى طفلة !

فأجاب الولد بفتور مصحوب بابتسامة باردة :

ـ قلت انك سترزق طفلة!

ـ ولم طفلة ؟

ـ سيكون لك اكثر من واحدة اذا اردت ، فأنا لا أرى مانعاً في ذلك !

ـ الحق انني لا اريد شيئاً .

ـ ولكن السيدة حرمك تريد صنع الفراش لابنتها هي ،ولو رفضت أنت .

ـ لو كانت لها ابنة لكانت ابنتي في نفس الوقت .

ـ حسناً ، انها ابنتك انت !

ـ اكرر عليكما ، للمرة العاشرة ، ان ليست لي ابنة !

ـ المهم في الموضوع هو ان الفراش سيصنع لشخص ما ! طفلة منك، أومن زوجتك او منكما معاً ، أي انت وزوجتك !

ـ واذا رفضت ان تكون لي طفلة ؟

ـ فلنقل اذن طفل !

ادريس بشدة :

ــ لا فارق عندي بين طفل وطفلة !

ــ فليكن مولوداً بلا تحديد !

ــ كيف ؟

ــ سوف تصبح أباً . انسيت انك زوج والدة الطفل المنتظر ؟

☆

ابتسم الشيخ ، وسعل ثلاث مرات متوالية متلاحقة . من الممكن انه اراد بسعاله ان يلفت انتباه محدثيه الى ما سيقوله ، اذ ان دخان الغليون هو الذي سبب له السعال الحاد . ورن صوته بلهجة حوت الكثير من الرصانة :

ــ هي الحقيقة ! نعم ،هي الحقيقة عينها . اريد ان تعلما ما حدث ، في عهد السلطان مولاي عبد الحفيظ ، تغمده الله ببركاته ورحمته ، انتما ، لم تكونا قد ولدتما بعد . فجدك الحاج قدور الذي رجع اذ ذاك من الحج منذ وقت قريب ، جدك الرجل المسكين رحمه الله ...

قاطع الابن اباه :

ــ الا تتركني اكمل حديثي !

(ثم الى ادريس) :

ــ اجل ، الصوف يا سيدي ، الصوف للفراش ، فراش ..

وأردف الشيخ بقوة :

ـ لأجل الصوف !

فأجابه الشاب بصوت اشد حدة :

ـ كلا ! الفراش للصوف .. لا ! لا ! الصوف للفراش ، الفراش للطفلة.

اذ ذاك ضرب ادريس الطاولة بقبضة يده صائحاً :

ـ لا وجود للطفلة !

ـ فقال الولد بصوت مائع :

ـ اذن طفل !

عاد ادريس يضرب الطاولة من جديد بقبضته ولهجته ترتعد :

ـ كلا ! كلا !..

أردف الشيخ ، وهو يدفع سحب الدخان من فمه :

ـ حسناً ،فلنقل ولد ، فلربما تروق هذه اللفظة اكثر من لفظة طفل او طفلة .

ـ لا ، لا ! لا يروقني شيء !

ورد الشيخ محتفظاً بهدوئه :

ـ اذن ، الصوف للفراش ، والفراش للاشيء ! وليـــدم مولانا على

خاطره !

ضاق ادريس بكبت غضبه وانفعاله وصاح في وجههما :

- كفى حديثاً ! أرجوكما !

فاحتج الشاب :

- على رسلك يا سيدي ! نحن ما قلنا شيئاً يغيظك . فهل من العار ان نتحدث اليك عن اولادك ؟ ان تصبح والداً ، هل في ذلك ما يشين ويزعج ؟

ثم قال لوالده :

- هيا نذهب !

مشى الشيخ ذهاباً وجيئة يحصد في طريقه فوارات من دخان (الكيف) العنيفة وسرعان ما اختلطت مع رائحة الكتب المجلدة والجرائد ومع رائحة نسيم مايو . امتلأت الغرفة بهذا المزيج ، مما اثار سعال ادريس.

استرسل الشيخ يدخن غير مبال بالآخرين ، ثم وقف عن السير ، وتسمر في مكانه ملقياً نظرات ساخرة على ادريس ، ذلك الرجل المائع الذي لا يتحمل رائحة (الكيف) ثم استأنف مشيه باتجاه الباب ، رافع ذراعيه نحو السماء ، ثم قال لولده مؤنباً :

- هكذا تمنع الناس عن الكلام ، مع ان الله تبارك وتعالى قدوهبنا

لساناً لنتكلم !

فتمتم الولد :

– على شرط ان نتحدث باقتصاد ولا نضخم الجو بالصيحات !

اكتفى الشيخ بأن نظر الى ابنه ببرودة واشفاق ، قبل ان يلتفت الى ادريس من جديد:

– انت تمنع الناس ان يشتغلوا ، رغم ان الله خلق الخروف ليعطي الصوف ، والصوف ليصنع منه الفراش ، ولقد مـن الله علينا ، نحن المنجدين ان نصنع الفراش . ثم قال لابنه :

– كل ذلك يذكرني بما حدث ، بعد ولادتك ببرهة وجيزة .اسمع! كان .. ذلك ..

ايه ! انت في السنة التي سقط فيها الثلج على فـاس ، سافرت لزيارة مولاي ادريس ، رضي الله عنه ، ولما رجعت الى الرباط وجدتهم قـد اشتروا الخروف بعد اليوم الخامس من ميلادك . نعم ! حدث ...

– حدث ماذا ؟ هيـا يا ابي ، لا اريدك ان تعود القهقرى في الماضي الغابر .

– واحسرتاه ! هؤلاء الاولاد ، اولاد هذه الايام لا يريدون سماع احاديث شيوخ ، ولا يحبون الاصغاء الى اقوال الحكمة . ان الله، تبارك

وتعالى ذكر في كتابه الكريم ...

هنا تململ ادريس فوق كرسيه وقال بلهجة من يصطنع الود والابتسام وهو ينتصب قائماً ببطء:

- اني ارثي لكما يا سيدي . من الاكيد انكما ضللتما الطريق الى البيت الذي تبغيان الذهاب اليه لصنع الفراش .

فأجاب الولد على الفور :

- لا يا سيدي ، ان العنوان مسجل بدفتري ، لا خطأ فيه .

*

عاد الشيخ الى داخل المكتب ، وجلس على اريكة مشبكاً فخذيه ، ثم اخرج من الكيس سبحة كبيرة وقال ، وهو يؤرجح رأسه :

- اجل ، بكل تأكيد ، ان صاحبنا يرفض ان تكون له طفلة .

- كلا يا شيخ ! أنا لا اريد شيئاً ، ولا أرفض شيئاً .

فأجاب الولد :

- ألا يعني الاصرار على عدم الرفض وعدم القبول انك لاتفصح عن رغبتك ؟

هل تريد صنع فراش الطفلة ؟

وسأل الاب بدوره :

- واذا لم يرد طفلة ؟

- يصنع الفراش لطفل !

- واذا لم يرد ، لا طفلا ولا طفلة ؟ ولكن فقط . فلنقل ولداً ؟

- جيد ! جيد .. ولكن الطفل او الطفلة كليهما يدعيان ولداً !

بدأ ادريس يتثاءب ويتحرك ، معبراً عن سأمه وضجره . فما كان الشيخ إلا ان تابع جداله مع ولده . وقال بعد ان نفخ في غليونه لينظفه مما علق به :

- اعتمد المنطق ولو قليلا ! ان جيل هـذه الايام يشكو ضعفاً في العقل وغباوة في التفكير . سيدنا الفقيه لا يريد طفلة ! هل سمعت ؟ لا يريد ، انه اراد الا يريد طفلة .

فارتجف صوت ادريس غضباً :

- ولا اريد طفلا ايضاً !

فأجاب الشيخ بنبرات ثقيلة :

- إذن تريد ولداً وكفى !

- ماذاتريد اذن ؟ فراشاً !

- قلت لكما لا اريد فراشاً !

حينذاك نفد صبر الولد :

– ولكن حرمك تريد فراشاً ، وذلك يعني انها تريد ولداً ، من الله !...

– انا ارفض كل شيء . ألست رب البيت وسيد اسرتي ؟

– لا تنس ان للسيدة كلمتها في الموضوع !

– ليست القضية قضية اقوال و كلمات ، بل قبل كل شيء ، قضية ولد . النساء يلتزمن الطاعة لازواجهن . وعلى الزوجة ان تخبر زوجها قبل ان تحبل وتلد .

✡

من سخرية الصدف ان يكون الشيخ حاضراً في حوار الاطرش مع الابكم . القضية بالنسبة له واضحة .

– الله هو الذي يقوم بالخلق والابداع . كل هذه الامور تصدر عنه وتتعلق به .

– كما كان يقول جدي ..

يا للشيخ المسكين ! الحظ يخونه . انه موضوع سخرية ، خصوصاً لولده . واكثر من ذلك انه يقاطعه ! آه ! شباب اليوم !

امر الولد اباه بالذهاب الى حال سبيلها .

فأجاب الشيخ :

ـ اخيراً سنذهب . ولكني سأنتهي الى الاعتقاد بأن السيد لا يريد ان يكون له اولاد .

لف سبحته حول رقبته ، واخرج كيس الدخـان ، ثم تابع كلامه ، دن ان ينتبه الى الآخرين :

ـ انا ، عندما وهبني تبارك وتعالى هذا الولد ، مشيراً الى ابنه ، هو الولد الثالث عشر ، او الرابع عشر من بين اخوته واخواته ، لم اعـد اذكر بالتأكيد . عندما نفحني الله بهذا الولد ، قبلت عطية الخالق جل شأنه واذعنت لمشيئته . افعل انت ايضاً كما فعلت انا . اتركنا نصنع لك الفراش لتبرهن انك لا ترفض هبة الله . وتابع بعـد صمت وجيز : ، يا ابنـــائي . اصغوا الى اقوال مـــن هم اكبر سناً واكثر حكمة فارشاداتهم كنوز هذا العالم .

*

هنا سمع صراخ طفل يتعالى من اقصى البيت ، فاقترب المنجدان من الباب ، وقد بدا عليهما الفرح ، مع شيء من الدهشة ، فركزا نظراتهما على ادريس ، وقد استحوذ عليه الذهول والشرود فصرخ الشيخ :

ـ انها هي ! انها هي !

سقطت منه علبة الدخان وراح يجمع التبغ الذي تبعثر على الارض ،

وصاح الشاب كأنه يردد صدى صراخ ابيه :

ـ انه هو ! انه هو !

اما ادريس فقد اخذ يتمتم مشدوهاً حائراً :

ـ من ؟ من ؟ ماذا حدث ؟

*

تسمر ادريس في مكانه غارقاً في بحر من الفراغ المذهل المروع ، فراغ العزلة والبعد ، امام هذين الرجلين اللذين لا يفهمهما ولا يفهمانه.

ما هذا الصراخ ؟ ما هذا البكاء ؟ افكار متقلقلة لا قوة له على لم شعثها ، وتركيزها في نقطة واحدة. احس بجمود وانهيار يعصفان بكيانه. هواجس واوهام . اقدار مجرمة سفاكة ! بكاء غريب في بيته ؟ ولكن هل سمع البكاء والصراخ حقاً ؟ ام ان ما حدث لا يتعدى مجرد خيالات واحلام ؟ انه يشعر بأن روحه تتقهقر في داخله ، وفي اذنيه ولولة انهيار وضجيج دمار .

واخيراً سمع ادريس صوت الشيخ يتفجر فيوقظه من بلباله :

ـ انه يتظاهر بالبراءة . ويتلبس السذاجة ! لقد سمع صراخ الطفل في بيته ، ومع ذلك فهو لا يكف عن سؤالنا ، من ؟ ماذا ؟ يا للمزاح الصبياني ! انها ابنتك يا سيدي انها طفلتك انه ابنك او طفلك . هو

ولدك ، هي ولدك !

*

من جديد انغمس ادريس في عالم الحالم اليقظ ذاهلا يغوص في اعماق اللامعقول . امام مثل هذا الحصار العبثي ، تضع الثقافة السلاح ويستسلم الفكر صاغراً ويبدأ التجول في الظلام حيث يتساوى المثقف بالامي ، والمبصر بالاعمى. لم تعد اجهزة ادريس الفيزيولوجية تتناغم مع وجدانه ، فحتى شفتاه اخذتا تتحركان دون تسيير من الارادة ، تقذفان بعبارات غير واعية :

– لكن .. لا ! ليس لدي طفل ابداً . ولا طفلة ايضاً .. لا .. ابداً ..

فعلق الولد ساخراً ، واكتسى صوته نبرات الواثق مما يقول :

– انه طفلك ! او شيء شبيه به !

*

يسمع البكاء والصراخ من جديد ، ويقترب ادريس من النافـــذة. يرهف السمع جهة الباب. لقد احاطت به غيوم دكن من الحيرة والشرود واغترف الشيخ الفرحة مـــن تلميحاته الاخيرة ، ولبس ابراد النشوة بالظفر . اقتربت اسنانه الهرئة ترن ضحكة ساخرة هازئة . ثم اخـــذ

يقول بجدة :

– واخيراً اراد الله تبارك وتعالى ان نلمس لمس اليد الدليل الناجز القاطع . اسمعت يا سيدي الفقيه؟ من المؤكد انك سمعت . ومع ذلك ظننت من السهل ان تلصق بنا صفة المشعوذين . اما الآن، فها هو الطفل نفسه ، مثل ملاك سقط من السماء ، جاء يدعم هدفنا بالبرهان ، بصوته الملائكي العذب . المنة لله ولرسوله. لقد سمعت بأذني اليسرى ، لان اليمنى انتابها الصمم منذ وقت سحيق بعيد « .. ثم الى ابنه » ، حدث ذلك عندما ولد اخوك ، واحد من الثلاثة الاوائل ! آه ! لقد مضت على ذلك اربعون ، او بالاحرى خمسون سنة .حينذاك كان الحاج ...

امسك الشاب بذراع والده وجره الى خارج الغرفة .

*

ردد ادريس وعيناه ما زالتا عالقتين على الباب الداخلي ، وقد اصفر لونه ، وكل اشاراته تشبه حركات النائم المتجول :

– امام ما حدث ما زلت على جهل مطبق مرير . الشرود والتردد يستبدان بي بقسوة .

مشى الى النافذة بخطوات متثاقلة والتهم نظره الحزين المتلجلج الرباط كلها . خصوصاً الرباط الجديدة. ولكن نظره لا يستقر على شيء ، ولا

يبحث عن شيء . الشيء الذي يهم له ادريس هو ان يحيط بما يعتمل في داخله . ولكن هل لديه القوة الكافية لسبر اغواره وتفهم ذاته ؟ انه يتطلع ولا يرى شيئاً ، ويخفض رأسه ويحلم دون ان يدري بماذا يحلم . ضميره متشنج متخدر . لا بد ان دواراً كثيفاً متوجرجاً مثل الضباب يغلفه . الخور يدب في جسمه ، والفراغ يعوي في رأسه . حبذا لو استطاع الى البكاء سبيلا . شهوة الى ذرف الدموع تتآكله . شهوة الى دموع مهدئة ، «ما هو سر الطفلة ؟ ماسر الصوف ؟ زوجي ترى في المنام اننا رزقنا بابن ، ويأتي المنجدان ليصنعا فراشاً ، إلاهي ! في اي عالم انا ؟

مولود ! طفلة ! طفل ! ابنها ؟ ابني ؟ ابننا ؟ ابن من ؟ » .

*

رفع ادريس رأسه ونظر من جديد في الفراغ ... المدينة بيضاء ناصعة ، مثل حجرة الجراحة في مستشفى ، مثل المغربيات وقد تسربلن ثياب الحداد ، مثل الكفن . مدينة مغناجة لا شبيه لها إلا بلدة اغادير . انه لمهندس عبقري فذ ، تمرس بالتساوق والتناغم ، ذلك الذي صمم وخطط الرباط الحديثة ولكن الرباط تنفح ادريس في هذه اللحظات بالمشهد العاتم الحزين .

من هو هذا المولود ، ما جنسه ؟

هل هو أسود أم أبيض ؟

ما أتى يفعل هنا ؟

نعم ، هنا ، ماذا أتى يفعل ؟

من جاء به الى هنا ؟

هل هناك من يتردد على البيت ؟ قسما ..

*

طفل !

انه يمثل الحياة ورمزها ، انه حياة الالغاز . ان الطفل ، اي طفل ، كل قائم بذاته ، وهو في الوقت نفسه لا شيء بدون الآخرين . هنا نحس بغلاظة لغز الانسان وكثافته . وان اللغز يمر منا ، وخارجاً عنا ، يمر في كل شيء ولا يوجد لغز وسره في اي مكان اذاك هو لغز كل لغز وسره الدائم اننا مجبرون على ملاحقته ، في بحث ابدي مأساتي .

الفصل الثالث

عادت فاطمة من الباب الداخلي . وادريس مازال غارقاً في شروده، لم ينتبه الى وجودها بقربه . هل فطن إلى وجوده هو ؟ انه يرتفق النافذة، يتأمل ، يتأمل ، او بالاحرى يفتح عينيه على الاشيـــاء والموجودات ، وعلى الرباط التي يجسم اليها النظر . لا قيمة للاشياء في رأيه، حتى وجوده يعتوره التقلقل ويفتقر الى الاستقرار . رئتاه تعبان رطوبة الهواء الذي تمتاز به الرباط ، رطوبة تستبد بالجسد فتشيع في تضاعيفه الخدر والتبلد والكسل .

راحت فاطمة تذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، تضرب الارض بقدميها ، لعل ادريس يفيق من هواجسه ويفطن الى وجودها بقربه ، فلديها اشياء تريد ان ينظر اليها .

سمعت اصوات البكاء من جديد ، فانتفض ادريس كمن لسعه زنبور

مهتاج :

– ماذا حدث ؟

علا الخجل محيا ادريس حالما انتبه إلى فاطمة بجانبه ، والتمع في وجهه عرق بارد ، وشعر ان الدم يتدفق في شرايينه تدفقاً . رمى نظره بدهشة وذهول ، على السكرتيرة فوسعت الشابة مـــن عينيها وجرضت بريقها وقالت :

– انه طفل ،ياسيدي، ولد حديث العهد بالعالم . انه ملك صغير !

ازداد ادريس ذهولا ، وفغر فاه محاولا ان يتكلم ، فخانه الكلام . أدركت فاطمة مدى ذهوله وشروده ، فتابعت :

– نعم ، نعم ، انا متأكدة مما اقول ! انه لطفل حلو جميل !والسيدة التي احضرته تقول بأنها ضلت الطريق فدخلت من باب الحديقة ، وهي تطلب ان تراكم حالا . فأجبتها بأن عليـها أن تنتظر بعض الوقت اذ لا يمكنها ان تراكم إلا بعد ذهاب الرجلين اللذين كانا هنا . ولكنها ألحت على لقائكم عاجلا .

آه ، يا للطفل الحلو الجميل ، هل سبق لكم ان رأيتموه ؟ يا لحماقتي ! من المؤكد انكم تعرفونه .

– ما هذه المهزلة . وما الذي تحيكونه لي مرة اخرى ؟ من المؤكد

اني لا اعرفه . وليس عندي اي موعـــد معه .. او .. والمرأة التي ترافقه .. ماذا تبغي ؟

– لست ادري يا سيدي .

– اني منهوك القوى الآن : لن استطيـع ان استقبلها . ارجو ان تذهبي فتقولي لها ان تعود غداً .. لا ، لا !.. انتظري !

وبعد ان راح وجاء في الغرفة ، في صمت وخشوع :

– ومع ذلك اود ان اعرف ما في الامر ولكن ، اي شر يريدونه بي ؟ وجود طفل عندي ! ان ذلك مما يزعجني ويحيرني .

وران صمت رهيب على الغرفة ومن فيـــها ، وبعد لحظات ، سأل ادريس بصوت مرتجف : هل هي طفلة ؟

– لا اعتقد .

– اذن افهم من قولك إنها ليست طفلة ؟

– الظاهر انها ليست طفلة .

– من المؤكد اذن انه طفل ، حسب رأيك ؟

– هكذا بدا لي ، ولكن ربما كنت على خطأ . ثم لماذا لا يكون الاثنين معاً !

– الاثنان ؟ توأمان ؟

ـ كلا ، أردت أن أقول ، اما طفلة واما طفل .. ارجح انه طفل. اخيراً لست على يقين مما أقول .

ـ ولكن المهم في الامر ان هناك ولداً ؟

ملأ الجو صراخ المولود فاستبد الذعر بادريس ، وامتقع لونه ، وراح ينظر جهة الباب الداخلي . فاقتربت منه فاطمة وعلى شفتيها ابتسامة ذات معان :

ـ هل سمعتوه ؟

ـ اني بحاجة الى الراحة والاستجمام ، ولكن اود لو اعلم ! ارجو منك ان تسأليها عما تريده مني ، وساغتنم هذه اللحظات حتى استعيدقوتي واستجمع أفكاري .

*

خرجت فاطمة من الباب الداخلي . فاقترب ادريس من المرآة ، وتفحص داخل عينيه ، وجس نبضه ، وتطلع الى الساعة .. رجعت فاطمة وقالت :

ـ انها صديقة لزوجتك ، سوف تنوب عني مدة الخمسة عشر يوماً التي سيقضيها والدي في المستشفى . فزوجتك هي التي طلبت اليها ذلك بنفسها منذ بضعة ايام ورجتها ان تحضر الى مكتبك في هذا الصباح لتتعرف

اليك .

– اف ... اجل ، الآن قد فهمت . نعم، انهاصديقة لزوجتي، اما انا فلا اعرفها .

والولد ؟ ما هو شأنه ؟ هل هو ابنها ؟

– اظن .

– انت تلزمين « الظن » في كل شيء ؟

– لا نستطيع ان نتأكد من شيء يقيني في الحياة . على كل حال ، انا اظن ... نعم ، اظن ...

اذ ذاك نظر اليها ادريس ، بانفعال وصرخ قائلا :

– الناس يظنون ، انت تظنين ، فلنفترض ذلك دمية او حيواناً صغيراً ! اذا كنت تظنين ، فنحن ايضاً نظن !..

فأجابت فاطمة بجفاف وانفعال :

– أيجوز ان تتلهى تلك المرأة بلعبة ، وقد بلغت من العمر مرحلة النضج ؟ انها امرأة قد شربت سنها . وهل انا لا استطيع ان اميز بين مواء هرة وبكاء طفل !

وتابعت بعدم اكتراث :

– على كل حال، الموضوع بالنسبة لي امر جد عادي ، فليكن فأراً

او طفلا او دمية .

– لا ، لا ... اجل ، اجل ... انت على حق . يجب ان تعطي للاشياء القيمة التي تستحقها ، فلا افراط ولا تفريط .

– خصوصاً والامر يتعلق بمولود جديد، بمولود صغير جداً. انه جميل رغم صغره ، ودون أن أفرط .

– تكلمت على سبيل العموم . كم من مخلوقات وحوادث نتأثر بها ونخاف منها لأننا ننظر اليـــها بعين المطلق واللامحدود . لو علمنا كيف نضع كل شيء في موضعه الحقيقي ، وننظر الى كل شيء بعين الواقعية، لبانت لنا اشياء كثيرة على حقيقتها ، لا كما تعودنا ان نراهـــا ، او كما عودونا ان نتصورها . الحياة تتنافى ووجود المطلق واللامحدود . علينا ، قبل كل شيء ، ان نؤمن بواقع الامور وحقيقتها .

من جديد أنفجر الطفل يبكي فقالت فـــاطمة بصوتهـا الساخر الحاد :

– هو الطفل يا سيدي ، ذلك الطفل المسكين ! قد نفد صبره . ان تحليلاتكم وابحاثكم وكل ماتنطوي عليه من مطلق الحقيقة والواقع الغامض لن تهمه ، لا من قريب ولا من بعيد .

– اسرعي اذن يا فاطمة ... ادخلي السيدة .

ـ والطفل ؟

ـ الطفل ؟ نعم ، الطفل ؟ هو ايضاً دعيه يدخل ، ولكن ابقي هنا معنا . ومع اني لا اؤمن بالهواجس والوساوس ، فان قصة ذلك الطفل تجمد الدم في عروقي . ألا تلاحظين ما يعتريني من رعشة ؟

دنا ادريس منها ليلمس يدها ، فطفرت مذعورة مثل حمار حرون عنيد ، وهي تصرخ

ـ آي .. آي !..

٭

توالت على الباب الداخلي ضربات خفيفة اعقبها صمت وسكون . فأشار ادريس الى فاطمة ان تفتح وتدخل الطارق . ولما ترددت فاطمة انفتح الباب وحده ، وظهر منه رأس امرأة اجالت في الغرفة نظرة مقتضبة شفعتها بابتسامة خجولة ، وقالت :

ـ هل استطيع ان ادخل ؟ ارجو ان تصفحوا عن جرأتي يا سيدي ، فلن استطيع الانتظار اكثر مما فعلت بسبب الولد الذي معي .

فرد ادريس بصوت مترجرج :

ـ اهلا بك ايتها السيدة ، ادخلي ، تفضلي !

لم يغب الرأس حتى انفتح الباب ثانية على مصراعيه لتدخل منه عربة

طفل استوت في وسط الغرفة . فران الصمت على الجميع . وبعد لحظات ، تقدم ادريس من الطفل ، ورجع الى الوراء فجأة كمن فقد رشده .

التفتت اليه فاطمة وقالت ساخرة هازئة :

ـ حتى هـــذا الطفل الصغير الحجم يخيفكم ؟ اتخيفكم حقيقة صغيرة تدفقت في جنباتها فورة الحياة وواقعيتها ؟

ـ ليس الوقت وقت مزاح ! عوضاً عن ...

لم يتم ادريس جملته لأن رأس المرأة ظهر مرة اخرى من خلال الباب الخلفي ، وهي تقول :

ـ عذراً ، ذهبت اوصد باب الحديقة ، كنت قد نسيته مفتوحاً .

تسمرت عينا ادريس على الطفل حتى لم يعد يرى اي شيء سواه في الغرفة

اما فاطمة فلم يغادرها هدوؤها ، وراحت تراقب ادريس وقد التفت فجأة الى المرأة ، وقال مرتبكاً :

ـ اجلسي يا سيدتي

وتابع بعد لحظة :

ـ اعجبت كثيراً بولدك يا سيدتي . ما اجمل طهارة الصغار، أهنئك.

آنذاك صدرت من فاطمة امارات السخر ، فتقبلتها المرأة بابتسامة

فيها اشفاق ، وبتمتمات غير مفهومة .

بلع ادريس ريقه وقال :

– منتهى اللطف منك ايتها السيدة ، ان تنوبي عن الآنسة فاطمة في القيام بعملها .

– لا منة لي فيما سأفعله ، اذا كان ذلك يرضي زوجتك التي تربطني بها الصداقة ، منذ ايام الدراسة ، بقسم الشهادة الابتدائية . اظنها قد اخبرتكم بأنني لست سكرتيرة محترفة .

– ما اسمك يا سيدتي ؟ (وتناول مفكرته يبحث فيها عن اسمها) ولكن السيدة وفرت عليه بعض الجهد ، وقالت باقتضاب :

– عزيزة ، ذلك هو اسمي يا سيدي .

*

عزيزة ، اسم ساحر ، جميل ، وان التي تحمل هذا الاسم لجديرة به . لم لا تكون « عزيزة » و « حبيبة » لانسان ما ؟ أستقام لها الجسد النسيق والنظر الخلوص الرهيب الذي يستعبد ، ولها قسمات تأسر . لله ما اقوى سحرها ! جمالها يشع اجواء البساطة والفطرة الطبيعية ! ما فتئت عزيزة في ريعان الشباب وفورته رغم تخطيها الخامسة والثلاثين . ينبع الجمال من سحر ذي طيبة وسذاجة بعيدين عن كل تصنع . الاسنان نصيعة ، قد رصفت في

فمها على احسن ما يكون الوصف تناغمـاً وتناسقاً . ما اقدر العيون والاسنان على الاغراء وزخم الافصاح ! الخضاب الناصل على الوجنتين والاحمر الخفيف على الشفتين يدعمان بساطة هيئتها العامة : قميص سماوي اللون ذو قفل برقي قد زرر حتى العنق، ووشاح من الحرير الزاهي يغطي الرأس ، في معصم يمناها اسوار من الفضة ، وفي معصم يسراها ساعـــة رقيقة من الذهب . فلا وجود للتظاهر واللامبالاة في جسدها جميعه.

ما تعود ادريس ان يقف مكتوف اليدين امام الجمال ، رغم مـــا يتخرص به بعض اصدقائه . فمظاهر الجمال حبيبة اليه وما اكثر ما قرأ من الكتب والنشرات عن الاستيتيك ، وكم مرة استهواه ، ايام الدراسة، ان يتتبع عن كثب انتخاب ملكات الجمال . اما الآن فمن الصعب ان يحتفظ الانسان برجاحة عقله ورفاهة ذوقه واصدائه لما هو فيه ... انه يعيش حقيقة عارية ، سر الطفل ؟ الطفل السر ؟ ثم ، اما ان يكون الانسان مخلصاً لزوجته وإلا ...

حاول ادريس ان يستعيد رباطة جأشه ، وسأل عزيزة :

ـ لا شك انك اتفقت وزوجتي على نوع وشروط العمل ، ويمكننا ان نبدأ غداً . ماذا ترتأين يا فاطمة ؟

فأجابت فاطمة واثقة ، هادئة :

ـ في استطاعة السيدة ان تباشر العمل بعد الظهر ، اذا سويت قضية السلف اليوم .

فقال ادريس ، والكلمات تتدفق سريعة من شفتيه :

ــ سأسعى فأقترض المبلغ ريثما اتمكن من الذهاب الى المصرف .

ولكن عزيزة لفتت انتباهه الى موضوع مهم بالنسبة اليها :

ــ ان زوجتكم وعدتني ان تهتم هي بالولد في اوقات انهاكي في العمل بجانبكم . ولكن بما انها مسافرة ...

ــ اعتقد ان الآنسة فاطمة ستتعهد بذلك ، ريثما تعود زوجتي ..

لم تتريث فاطمة في رد الجواب ، فقالت بلهجة القسوة الهادئة التي تستقيم فقط لرعونة الشباب :

ــ حسناً ! هي تنوب عني في الضرب على الآلة الكاتبة ، وانا انوب عنها في قمط الولد وتسليته ! اراني سأصبح أما اربي ولداً .. سأستعيض عن ضجة الآلة الكاتبة بصراخ الطفل وبكائه ... وضع لا يخلو من رومنطيقية ! يتحتم عليكم يا سيدي بدافع الرحمة والانسانية ، ان تذهبوا الى المستشفى لتقوموا بالعناية بوالدي ، اليس كذلك ؟

ــ على رسلك يافاطمة !انت تعلمين مدى ما أنا فيه من تعب وتوتراعصاب

ولكن فاطمة تابعت حديثها غير عابئة بما قال :

– ولما تكونون في المستشفى ، ينوب عنكم غيركم في املاء الرسائل والمقالات . يا له من تصميم رائع جليل ، ان نصير جميعاً عرضة للاستنابة والتبديل حتى الابد !

قاطعها ادريس :

– ارجو ان تلتزمي الرزانة ، يا فاطمة !

ولكن الشابة تمادت تقذف بكلماتها القـــارصة . فاقترحت بسخرية اشياء على عزيزة ، ثم اتهمتها بأنها سكرتيرة ارستقراطية .

وعبثاً عض ادريس على شفتيه ، وعبـثاً اشار الى فاطمة بالسكوت والهدوء . فالتفتت عزيزة جهة فاطمة قائلة :

– سنوك العشرون تدافع عنك ، لذلك لا آخذ عليك انت . الآن تتمتعين بفورة الحياة والشباب . عندمـا تثقل كاهلك الايام ،وتزخرين خبرة، تتحولين الى انسان .

اكتفت فاطمة بأن هزت كتفيها وراحت تتطلع جهة النافذة .

وتأوه ادريس ثلاثاً ، ثم قال الى عزيزة ، مجاملا :

– انك لطيفة جداً يا سيدتي ، اعرض عليك ما يلي : عندمـــا املي عليك ، ستعتني (دادا) مربيتي العـــجوز ، بالولد . وفي الوقت الذي تضربين فيه على الآلة الكاتبة سأعتني به انا بنفسي حتى اتيح لدادا ان

تتولى شؤون البيت .

*

اقرت عزيزة ما ارتآه ادريس. ورن الهاتف فأسرعت فاطمة تجيب :

ـ آلو ! نعم .. انا هي ! « وبعد صمت زهيد ، تابعت التحدث بجدة وانفعال » .. تخاطبينني من المستشفى ؟ حمل اليه والدي بسيارة الاسعاف ؟ تقولين ان حالته ساءت اكثر فأكثر ؟ .. سأحضر في الحال. شكراً ، يا سيدتي .

وضعت السماعة ، واستندت الى الحائط ، واخذت تمسح دموعها وهي تردد :

ـ المسكين .. والدي المسكين ..

رفع ادريس رأسه ، وقال في تأثر وعطف :

ـ اعتمدي الصبر ! وتشجعي يا فاطمة ! انها فترة صعبة يمر بها ولن يلبث حتى يستعيد صحته .

ـ شكراً يا سيدي . اني موقنة ان دموعي لن تخفف ما به من وجع وألم. البكاء لا يغير الواقع. انني تقبلت بتسليم مطلق كل ما رماني به القدر القاسي . لقد اجبرت على مغادرة المدرسة منذ سنوات وعشت حتى الآن حليفة الهموم . ولما سقط والدي في قبضة المرض ، تحتم علي ان

اجهد واعمل ليل نهار لاكسب لقمة الخبز لأفراد الاسرة . الحمد لله! ان ذلك لم يثبط عزيمتي فالحياة لا تجمل الا عندما تمسي عطاء وتضحية ...

ساد الجو شيء من الكآبة وتلاحق الكلمات ، والدموع تنزل .

- نعم يا فاطمة ! اني على علم بمدى تمرسك بالبذل وايثار الغير . هيا تشجعي !

تناولت فاطمة حقيبتها وتوجهت الى الباب ، ثم رجعت فأخذت معطفها وهرولت . ولكنها سرعان ما رجعت من جديد وقالت :

- الوداع يا سيدي ويا سيدتي . ارجو ان تصفحا عما صدر مني .

ولم تنس ان تنحني نحو الولد تودعه . وانطلقت بسرعة .

*

مرت لحظات يبتلعها الصمت قبل ان يرن صوت عزيزة الدافيء :

- ما اروعها فتاة ، تحمل في صدرها قلباً كبيراً ، كبيراً جداً .

فتابع ادريس :

- زد على ذلك ان لها ذكاء حاداً . ان مرض والدها اغرقها في عميق الآلام. لقد حطمت قلبها مضحية بالخطيب الاول ، ثم الثاني في مصلحة اخوتها الصغار. ان شعورها بالواجب ، ليشرف الفتاة المغربية .

وبعد ان تطلع ادريس الى الساعة في يده ، ومسح الغبار عن نظارتيه قال:

ـ يمكننا ، ان نباشر العمل حالاً ، ان تفضلت

ـ لا اجد اي مانع في ذلك ، يا سيدي .

*

تقدم ادريس نحو الداخل وصفق بيديه منادياً :

ـ دادا ، دادا ، دادا ، دادا !..

سمع من الداخل صوت مترجرج . هو صوت بشري ، ولكنه خال من كل جرس وغنة .

ـ ماذا تريد ؟ اني آتية ، اني آتية .

دخلت دادا يسبقها السعال وهي ترتدي ثياب المطبخ . دادا سوداء اللون ، بلغت من شدة السواد ، حتى ان وجهها يشبه خشب الابنوس . تقدمت جهة ادريس بخطوات ثقيلة ، على شيء من عصبية واعتداد ، وعند كل خطوة يهتز ويترجرج كرشها الضخم المترهل . انها تزن تقريباً مائة كيلو من اللحم والشحم . قامتها متوسطة الطول ، ومع ذلك فان اعوامها السبعين ابقت لها حيوية وحركة . هي من الجنس الذي لا يذعن لعجز الشيخوخة بسهولة ! الحياة تفور بجسدها كله ، وفي عينيها هيبة تستدعي الخوف والذعر . وضعت فوق انفها نظارتين ربطتهما على اذنيها بخيطين من القنب ، وائتزرت ببذلة زركشت بالزهور الصغيرة . وبعد ان

تفحصت دادا الغرفة بنظرة حاسمة سريعة ، قالت بلهجة من وقع على فضيحة :

– هيه ! هيه ! ارى ان « السيد » في اجتماع عشق وغرام !..

ثم وسعت من عينيها وضربت على فخذيها :

– وما شأن سرير الطفل هذا !.. هل بدأ الاستعداد !

– أزعج صوتها الطفل فطفق يبكي . إذ ذاك صرخت دادا :

– يا ويلي ! طفل هنا .. ما اجمل ما فعلته في غياب زوجتك .

– هيه ! هيه !..

رفعت يديها نحو السماء ، وتمتمت ثم حدجت عزيزة بعينين من نار ، وشفتاها ترتعدان . تسمرت عزيزة بالكرسي ، في ذعر محاولة ان تنطوي على ذاتها . ووقف ادريس بين المرأتين محاولا ان يعيد السكينة والهدوء اليهما . لكن دادا راحت تقول ، او تزأر ، على اصح تعبير :

– في ماضي الايام كان يلزم لعمل كهذا مرور تسعة اشهر !... تسعة أي خمسة وخمسة للحصول على طفل . اما انتما فقد اكتفيتم بتسعة ايام لا غير ، منذ ان سافرت زوجتك ، ليكون لكما الطفل والسرير ! انها نعمة من الشيطان وبركاته . ويلي ! لن اقبل ذلك هنا ابداً ، فتدبرا امركما بسرعة .

ونظرت الى ادريس وتابعت :

ـ تعهدت تربـية والدك ، واخوتك ، وربيتك ، انت ايضاً ، على سنة الله ورسوله ﷺ ! لا ، لا ! من المحال ان ارضى ، او ان اسكت عما حدث في بيتي . ولد الحرام لا يعيش تحت سقف الحلال !

اقتربت عزيزة من الطفل ، واستعدت لتدفع عنه كل مكروه ، بينما تابعت (دادا) مخاطبة ادريس :

ـ ها ، ها !.. أفي سبيل مثل هذا غادرتنا الى بلاد الكفرة المارقين؟ علموك ألا تناول طعامك ، مثل باقي الناس ، بل بالسكين والشوكة (ومدت يمناها نحو ادريس جاعلة من اصابعها شكل شوكة) . علموك ان تلطخ شعر رأسك بالعطور ، مثل النساء . نعم ، مـــثل النساء !.. علموك ان تحلق لحيتك ، اللحية التي تحمل على الاحترام ، مثل التي لوالدك واجدادك . حتى شاربيك حلقتهما . انك امرأة ، اين علامات الرجولة ؟ انك امرأة !.. بدل ان تسير على قدميك ، مثل جدودك ، علمك الكفرة ان تستعمل « التوموبيل » وتركض مثل المجنون ، آه آه !.. اعمالك كلها عديمة التروي والتفكير .. انظر الى ولدك هـــذا ! انه ذرية الحرام ! (واشارت الى الطفل في السرير) . ما اقبحه وما أبشعه !..

انحنت عزيزة على السرير ، واحتضنت الطفل . وقال ادريس وهو يغلي :

غضباً وحنقاً .

ـ دادا ، دادا ، اصغي الي قليلا .

لم تعره دادا الساخرة اي انتباه ، وتابعت تقول :

ـ ان ما فعلت قبيح جداً . ألا حرسنا الله من الشيطان الرجيم اللعين !

وعبثاً صاح ادريس ليحمل دادا على السكون . وبعد برهة من الزمان تحول صياح دادا إلى تمتمات وحركات فوضوية من اليدين والرأس ، كأن دادا افرغت ما بجعبتها ، دفعة واحدة ، فاكتسى صوتها شيئاً من الهدوء وقالت :

ـ لقد تعودت في الماضي ان تعطيني شيئاً من التنفيحة اخفف به حدة حنقي وغضبي .

اخذت تعطس وتبحث عن علبة التنفيحة في جيوبها ، واخيراً اخرجت محرمتها العريضة الواسعة وتمخطت بضجة . ارتأى ادريس الفرصة سانحة ليحول دون تفاقم هيجانها فقال بلطف :

ـ اليك يا عزيزتي دادا ، علبة التنفيحة هذه استقدمتها خصيصاً لك من تركيا ، من وطن السلاطين وبلد المساجد العظيمة .

تناول العلبة عن الرف ، فأدارت دادا وجهها تقول بغنج :

ـ لا ، لن اقبلها منك . انا مستاءة جداً .

وتحدثت دادا وهي تمد يدها الى علبة التبغ المسحوق دون ان تنظر الى ادريس :

– قلت لك لن استطيع ابداً ان اغفر لك هذه الفاحشة . لا والف مرة لا !

تابعت ، ويدها ما تزال ممدودة :

– أتعطيني العلبة ؟ قل نعم او لا ؟

فانفرجت شفتا ادريس عن ابتسامة مصطنعة ، وقال :

– قدمتها لك فرفضت ان تأخذيها !

– انا ؟ ابداً ، ابداً ! اذا كنت لا تصدق فاسأل هـذه السيدة (مشيرة الى عزيزة) لا ، ما رفضت العلبة . انا لا ارفض شيئاً يأتيني منك ، يا بني . هيا ناولني العلبة ! العلبة التي جلبت من بعيد ، من مكة المكرمة بيت الله المقدس . هيا اعطني (وتناولت العلبة مبتسمة) . علينا ان نخفيه (واشارت نحو الطفل) ولكن ليس هنا . هل تفهم ما اقول ؟ ثم نشقت التبغ . ثم اقتربت من الطفل بخطوات حركت في ايقاعها كرشاً ارتخى لحمه وانتفخ شحمه . نظرت دادا بامعان وحنان الى الصبي:

– ايه . ما ابهى هذه اللؤلؤة الصغيرة .. ما وقعت عيني على طفلة

اشد جمالا منها .

فقاطعها ادريس :

ــ هو طفل يادادا!

ازعج دادا ان يقطع ادريس عليها الكلام ، فشزرته وتابعت :

ــ الخطأ محتمل جائز ! انت تعرفه ، اما انا فلست اعرفه . لا تنس انك والده ! واعادت النظر الى الطفل . يا للملك الصغير !يجب ان نخفيه. ولكن ليس هنا .

تنفست الصعداء ، وتابعت على اكثر ما تكون هدوءاً وسكينة :

ــ ما اظن انكما سوف تحرمانني رؤية هذا الطفل الحلو كقالب السكر . الدار هنا حزينة جداً منذ ان كبر الاولاد !

سكتت بعد آهات وآهات ..فأدرك ادريس ان الامور تسير في طريق النجاح ، وقال لدادا :

ــ استمعي الي جيداً يا دادا . استدعيتك لاحدثك عن هذا الطفل . وليقيني من حبك للاولاد ، ارتأيت ان اعهد به الى عنايتك ، عندما تكون والدته ، هذه السيدة تقوم بأعمالي . انها صديقة زوجتي ، وهي التي طلبت منها ان تنوب عن فاطمة . واذا ...

ــ اجل ، اني على علم بذلك (واكتست لهجتها بالكبرياء) . لماذا لم

تخبرني بكل هذا حالما دخلت الى الغرفة . كنت كل مرة استفسرك عن هذا الطفل تشيح عني بوجهك !

– ابدا يا دادا !

– كيف ؟ اتجرؤ على الانكار ؟ (ثم الى عزيزة) أليس كذلك يا لا لا ؟

لم تنتظر دادا الجواب عن سؤالها .

– تعال يا غزالي ! يا شهدي المصفى ...

دفعت عربة الطفل الى الداخل وهي تردد :

– هيا يا بلبلي الجميل ، يا ظل الفردوس ... يا ملكي الحلو الصغير !

*

الآن دادا سعيدة : السعادة تغلغت في مجموع كيانها . كلمات عطف وحب وحنان تنبعث غزيرة متدافعة من شفتيها المرتجفتين . انها ما تزال تحتفظ بروح سن الطفولة حيث تنعدم الهموم . وقبل ان تغيب عن الغرفة ، اغرقت عينيها في العربة ، والتفتت الى ادريس :

– انه يشبهك تماماً . انكما كنقطتي ماء ! ومن شبه اباه فما ظلم ، كما كان يقول جدك ، الله يرحمه .

وعوضاً ان تتابع طريقها الى داخل البيت ، توقفت وتطلعت الى

عزيزة سائلة :

ـ هل لك اولاد آخرون ، ام ان ابنك هذا هو الوحيد ؟

ـ لا يا دادا .. لم ارزق أي ولد !

وكأن ادريس لم ينتبه لما يقال ، فراح يسوي اكمام المنصورية الفضفاضة التي تدثرت بها دادا ، ثم قال :

أراك فرحانة جداً يا دادا ! وما أشد سعادتي حين أراك سعيدة . هيا اذن ، وخذي الولد الى داخل الدار .

ـ لا فرح في العالم يعادل الفرح بولد صغير . كم يتمزق فؤادي كلما سمعت ولداً يناديني : دادا ، دادا ، دادا .

أردفت عزيزة بصوت خفيض ، كأنها تحدث ذاتها :

ـ ولكن الاولاد وا أسفاه ! مصدر هموم كثيرة .

هز ادريس رأسه ليشعرها انه موافق على ما تقوله ، ثم اضاف :

ـ ولكن ابنك هذا ما يزال صغيراً جداً ، فكيف يخالف الظاهر ؟ آه ! إنه ...

قاطعته عزيزة :

ـ ولكن ، الواقع اكثر مرارة وصعوبة من الظاهر ..

انصب نظر ادريس على عزيزة مستفسراً ، فلم تجد بدآ من الاجابة :

– من الصعب علي ان أتحدث عن هذا الولد ، انه يمثل اكثر من هم فهو ذاته مشكلة مأساتية . فما اجدر بي ان ابقي امره في سر الكتمان .

*

اذ ذاك تحول ادريس الى استاذ وقور لفه شرود وحزن ، فقال :

– كل واحد منا لغز بالنسبة للآخرين ، بل اننا ما نزال لغزاً مغلقاً بالنسبة لذواتنا ايضاً. ان اي طفل لا يقل عن أي كهل الغازاً وغموضاً ، في حين ان الطفل يمثل الآمال الفساح العراض امام زخارة الحياة التي تتقلص مع الكهولة . فكلما تقدمنا في الحياة ضعفت كثافة امكانياتنا وضاقت امامنا الآفاق ، فالمأساة التي تعتور الانسانية تتأتى من كوننا لم نستطع حتى الآن ان نستغل آمال وامكانات الطفولة والشباب .

– حقاً يا سيدي .

– كان ادريس يحاول ان يبهر عزيزةعله يقتلع منها سر الطفل ولكنها التزمت الحذر ، فاضطر ادريس ان يقتبل الخيبة ، ويستأنف حديثه .

– قصة حياتنا تسير في سبل معاكسة للطبيعة. اننا نتدرج من الآفاق الطليقة اللامتناهية نحو آفاق محصورة ضيقة ، في آخر حياتنا ، حيث التخمينات والمصالح الخاصة تقضي على عفوية العواطف والحماسة ، وحيث

الرضوخ لنظم واحكام المجتمع تقضي على براءة الطفولة ...

*

نفد صبر دادا فأخذت تشير بيديها معلنة ان ما يقال يتخطى ادراكها :

ـ هراء ، ثرثرة ، الولد يعني الولد ، والطفل يعني الطفل . لا شيء غير ذلك . اما ان يكون الطفل جميلا كهذا ، واما ان يكون قبيحاً . كل الاطفال يغردون ، وكل الاطفال يحومون مثل الفراشات !

وضحكت دادا بصوت عال ، فجاراهـا ادريس وعزيزة . فراحت تنظر اليهما وتصفق بيديها ، ثم قالت لعزيزة :

ـ ايه ! انتما الاثنان فطمتما من وقت قريب ، فماذا تعرفان عـن الاطفال وحياتهم ؟ الا دعاني اضحك من غروركما !

*

دفعت دادا العربة امامها آخذة معها ضحكها المقعقع . انها تفيض بشراً . وما لبثت ان اختفت هي والطفل وراء الباب الداخلي ، وقد اغفلت اغلاقه خلفها . عبق المكتب بالعطر الفواح يتصاعد من الحدائق المجاورة وبواكير اشذاء الربيع وعطوره تسيل على الرباط ، تتزايد يوماً بعد يوم . الشمس تتراقص في الغرفة حرة طليقة. الصفاء الازرق الساجي يخيم على صفحة السماء ، منذ انبلاج فجر هـذا النهار . خيوط الشمس

الذهبية تدخل من الباب الذي تركته دادا مفتوحاً لتلتحم بأخواتها التي تسربت من زجاج النافذة ، تعكس امواجاً متتالية متدافعة من نور وضياء على مرآة في الزاوية . ما اشبه امواج الضياء تلك بابتسامة شفتين حالمتين !

*

كل شيء هادىء . عزيزة تنتظر ان يأمر ادريس بالشروع في العمل، ولكن الف شعور وشعور تتزاحم بداخل ادريس في تناقض وتضارب . مسكين يحاول عبثاً ان يتفهم وضعه المتماوج بين الغموض . فبقدر ما يحاول ان يتمكن من موقفه بقدر مـــا يزداد الموقف سمكا وتعقيداً ، « يجب ان افهم ! يجب ان يطفو فكري فوق الظلام ، وان اصحو ، » يجب ان اعي هل من علاقة بين الطـفل الذي تراءى لزوجتي وبين الذي تحدث عنه المنجدان ، وبين الاثنين والولد الذي تحت رعاية دادا » . ثم غاص فكر ادريس في عالم اللامعقول ، عـالم الالغاز . نعم في عـــالم الالتباس والتناقض ، ألغاز واقعية يحس بها ، يحيـاها ولكنها لا ترى ولا تقهر .

الفصل الرابع

اخذت عزيزة تتسلى بحياكة الصوف . العمل حتى الان سهل صريح. وأي ضير عليها لو تقاضت اجراً عن هذه الساعات التي تقضيها عاطلة عن العمل ؟ ولكن هي غير مسؤولة ما دام ادريس مشغولا عنها بالثرثرة مع دادا . ثم انها على استعداد للقيام بكل عمل يطلب منها ، حـــال عودة ادريس .

رن جرس البـاب ، فبقيت عزيزة مكانها لا تحرك ساكناً . ولكن سرعان ما تبعت رنات الجرس ضربات قوية متوالية .

– من في الباب ؟ ماذا ؟

ارتفع صوت من خلف الباب .

– هيا افتحوا ! افتحوا حالاً !

ذعرت عزيزة وهرولت جهة الباب الداخلي صارخة .

ـ انتظروا ريثما انادي رب المنزل .

غابت عزيزة بعض الوقت ، ثم اقبلت ، يتبعها ادريس ، مشيرة نحو الباب :

ـ هل تسمع ؟

الباب يدفع بقوة ويهتز بعنف . فصرخ ادريس غاضباً .

ـ ما هذا ؟

فأجابت الاصوات المتداخلة من خارج :

ـ ألا افتحوا حالا ...

تراجع ادريس وعزيزة خائفين ، ونظر احدهما الى الاخر في حيرة وذهول ، ثم تسمرت اعينهما على الباب ، امامهما فتعالت الاصوات من جديدة ضاجة صاخبة :

= هيا ، افتحوا الباب .. وإلا ..

*

وقف خلف الباب ، ثلاثة من الشرطة ببزاتهم العسكرية وشواربهم المعقوفة .

سمعت دادا الجلبة ، فهرولت وحالما استوت في المكتب ، شزرت ادريس وعزيزة ، وصرخت :

- ما بالكما تتخاصمان ؟ ما هذه الضجة ؟ هل قامت القيامة ؟أحانت الساعة ؟

نظرت جهة الباب ، وكانت الاصوات ما تزال تعلو متوعدة حانقة . ثم التفتت دادا نحو ادريس ، باحتقار وسخرية ، وتدفقت الكلمات من شدقيها :

- هنيئاً لك ، لقد حلقت لحيتك التي تجعل منك رجلا شجاعاً يهاب. هل تخاف ان تفتح الباب ؟ رجل مثلك يخاف ، في وضح النهار ؟ يا ويلي يا ويلي !

وهجمت نحو الباب فأدارت المزلاج بسرعة ، فاذا الشرطي الذي كان يحاول دفعه يهوي منبطحاً على الارض ، فأسرع رفيقاه يمسكان به ليساعداه على النهوض . وقال له احدهما :

- الحمد لله على السلامة ! لا تهتم ، سأتولى امر الطفل انا بنفسي .

نهض الشرطي ، وطفق ينفض سرواله ، كما راح رفيقاه يضربانه على كتفيه لينظفا ما علق بسترته من غبار .

اقترب منه ادريس وقال :

- استعن بهذه الفرشاة ، يا حضرة الشرطي .

- ابعد عني هذا ! واعلم ان الذي تتحدث اليه » واشار باصبعه الى

صدره باعتزاز و كبرياء» مفوض شرطة !

ـ مساعد المفوض . دمدم الشرطي الثاني .

فأجابه الاول ثائراً :

ـ ما الذي يعنيك انت ؟ مساعد المفوض ام مفوض مساعد ، المهم انني مفوض.

فأردف الشرطي الثاني :

ـ لن تصبح مفوضاً بهذه السرعة ! كل ما في الامر انك اعطيت وعداً مبهما بذلك . فمن الجائز ان تصبح مفوضاً ، في احد الايام ، ومن الجائز ايضاً ان لا يحصل ذلك . ولو حدث واصبحت مفوضاً ، فلن يعلي ذلك من مقامك ورتبتك !

قهقه الشرطيان ، الثاني والثالث ، بينما بقي ادريس وعزيزة صامتين . اما دادا فراحت تهز رأسها يميناً وشمالا ، وتطلق صرخات الغضب مصوبة نحو الشرطيين الثلاثة نظرات يلهبها الحقد وتملأها الثورة .

وقال الشرطي الثاني :

ـ اريد ان تعلم ايها الزميل ، ان رتبة المفوض لا تنتزع بدهن الشوارب بزيت الزيتون او بالتفنن برصها وتعقيفها !

اذ ذاك نفد صبر الشرطي الاول فزمجر :

- اسكت يا خبيث ، واياك ان تضيف كلمة واحـــدة ، وإلا لمت نفسك !

وضع يده على المسدس ، وتدفقت من شدقيه عبارات غامضة . فامتثل الشرطي الثاني وقال .

- سمعاً وطاعة ، ايها الرئيس .

حينذاك ارتجفت دادا واخذت تصيح .

- ويلي ، ويلي ، يا اغاثة الاولياءوالصالحين ،نحن في حماية الله ورسوله ويلي ، ويلي :

اجفل الشرطيون ، ونظر بعضهم الى بعض، في حيرة ،وبعد لحظات، دنا الشرطي الاول من ادريس ، وقال :

- اتريد ان تكم فم هـــذه الحيوانة البشعة ، او نلقي القبض عليكم جميعاً ؟

وزاد الشرطي الثالث :

- انها ربعة سوداء ، مثل برميل من الزفت .

وتابع الثاني :

- وصوتها يشبه نعيق بومة عتيقة .

وعلق الاول مازحاً :

– انها سوداء مثل كيس الفحم !

اقترب ادريس من دادا ، وصاح في اذنها :

– اتريدين ان تسكتي ام لا ؟

فازدادت صراخاً ، وبدأت تقفز ، وتحجل ، وتزعق :

– يا ويلي من ابليس الرجيم ، يا ويلي ! ألف لعنة على الشيطان ! ..

فصاح بها ادريس مرتجفاً :

– اخرجي يا دادا ! اخرجي من هنا ، وافسحي لنا المجال حتى نسوي امورنا وحدنا ، نحن الرجال .

*

ران الصمت في الغرفة لحظة . وأخيراً قال ادريس :

– عذراً ايها السادة !

واشار الى عزيزة ، فذهبت هي ودادا واختفتا وراء الباب الداخلي .

وحالما انفرد ادريس مع الشرطة ، طفق يغمغم كلمات متأتأة . فتقدم الشرطي الاول منه :

– إياك ان تلجأ إلى المراوغة ، هيا ، سلمنا اياه بدون ادنى تأخير ..

– من هو ؟

فزجره الشرطي الثاني :

– لا تفتعل الجهل ، إذا كنت تود المحافظة على جلدك ! ولا تنس أن لدينا المعلومات المستفيضة .

فصاح ادريس في ذهول وشرود :

– قسما بالله العظيم ، انني لا ادرك ما تعنون

اقترب منه الشرطي الثالث ، غضوباً وهو يشير بالسبابة :

– من الاجدر بك ان لا ترتكب عنادك ! إما أن تسلمه ، وإما أن نحطم رأسك الصلب العنيد !

وبحركة سريعة ، نزع عن رأس أدريس الطربوش الصوفي ورمى به على وجهه هازئاً محتقرا .

فقال الشرطي الثاني :

– لا شك انه يخاف البرد في هذه الايام الربيعية الدافئة ! يا له من رجل صبي مغناج ! انه كدجاجة الماء !..

أشار الشرطي الاول إلى الثاني ، فاقترب منه . وبعدترو ، وسوس اليه :

– انتبه ، وكن حذراً ! ألا ترى الخزانة والجرائد والمجلات ! من البديهي ان يكون هذا الجلف على اتصال بالوزارة ، فلا تنس ان فئات المثقفين يتكاتفون ويعرف بعضهم بعضا .

ثم فتل شاربيه ، وقال لإدريس :

- هلا سلمتنا ، حالا ، الطفل الذي سرق امس من مستشفى ابن سينا ، وأخفي هنا ! نحن متأكدون انه هنا ، فلا تحاول الكذب والخداع . يبدو لي انك تصم اذنيك عما اقول . ان التبعة تقع عليك وحدك . لم يبق لنا إلا البحث والتفتيش .

أشار إلى رفيقه ، فاتجه الشرطي الثاني جهة الخزانة ، وفتحها وأخذ يفتش وراء الملفات والكتب ، وأخرج بعض المجلدات ، وسأل ادريس :

- ما هي هذه الكتب الضخمة المذهبة ؟

- انها قواميس لاتينية وانكليزية .

فرمى الشرطي بالقواميس على الأرض بازدراء :

- أي إفادة ترجى منها ! لان أصرف ساعة في « لعبة الورق » ، لهي أخف سأماً وأكثر نفعاً من استنزاف النظر في قراءة اباطيل كهذه ! كتب مذهبة ! ... ألم تبق للنساء الجميلات أذرع لتتحلى بالذهب ؟ .. ها ! ها ! ..

وأردف الشرطي الثالث :

- لو كان هذا الكتاب دليل الخيرات ، أو سيرة سيدنا علي وحربه ضد الجن لهان الامر وبطل العجب !

وعاد الشرطي الثاني يسأل :

- وهذا الكتاب الآخر الكبير ؟ لا شك انه القرآن الكريم ، انه هو ! لقد عرفته .

فأجاب الشرطي الاول ، مؤنباً :

- ما أغباك ! أتدعي هذا وأنت لا تحسن حتى القراءة ! ولكن ، لا بأس عليك ، فأنا أيضاً ، رغم ما يزين صدري من اوسمة ، لا أحسن القراءة . ولكن، لا تنس انني أستطيع أن أتلو الفاتحة : باسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ..

فقاطعه الشرطي الثالث ، بسخرية :

- هيه ! هيه ! لسنا الآن في جنازة . اترك هذا حتى يوم الجمعة ، لما تزور قبر جدتك ! (والتفت الى إدريس) :

فلنعد الى قضية الطفل . من الثابت انه ليس في جيبك ولا بين الكتب . قل ! اين هو ؟ بادر إلى تسليمنا إياه ، وإلا دمرنا البيت جميعه وحملناك أنت أيضاً معنا ! اننا نتبع سبيل الديمقراطية ، كما تلاحظ ، ولذلك تركنا لك أن تختار بملء حريتك .

*

أخرج الشرطي الاول ، من جيبه ،علبة السجائر وقدم واحدة منها لادريس :

ـ تفضل !ادخن لتستعيد رشدك !

ـ شكراً . لا أدخن ، يا حضرة المفوض .

*

عادت عزيزة من الباب الداخلي . فتنفس إدريس الصعداء ، وقال بجلال:

ـ يا سادة ! أريد أن تفصحوا عما تريدون . اني اقسم لكم بشرفي ..

ـ أي شرف !

اقترب الشرطي الثالث من عزيزة وقال :

ـ انت ،الزمي مكانك !اياك أن تذهبي من هنا قبل أن آمرك بذلك. أتفهمين ؟

اما الشرطي الثاني ، فالتفت إلى ادريس مهدداً :

ـ لقد حان الوقت للعمل الجدي . ليس لدينا وقت نهدره . اعلم ان قسمك وشرفك لا يؤثران فينا . الآن ، إما أن تعترف ، وإما أن أرمي حذائي على صلعتك !

ارتجفت عزيزة ، وتميزت حنقاً وصرخت :

ـ ماذا ؟ هل تجرؤ ايها المعتوه ! أهكذا تتصرف مع استاذ له ما له

من المكانة ؟ حذار أن تتخلوا عن التعقل والأدب ، وإلا ندمتم حيث لا ينفع الندم .

فقهقه الشرطي الثاني وأجاب :

ـ هيه ، هيه ! من اجل اي شيء سنخاف ، انه سقيم كالعود اليابس اعزل وضعيف ! انخـاف ممن يعيش ، كالفأر على مضغ الورق؟ يالتعاسة القدر ! أنخاف من إنسان لا مال عنده ، ولا سلطة في يده ؟ قولي لنـا من أين له يا ترى ، أن يستمد سلطته ؟

زجرته عزيزة ، والغضب يغلي في عينيها :

ـ ان قوة وغنى الدكتور ادريس اسمى مقاماً ، وأنفذ سلطة من كل السلطات المادية وبهرجتها . فهو ..

قاطعها الشرطي الأول ، مستفسراً بلطف :

ـ يفهم من قولك انه دكتور ؟

فخفضت عزيزة رأسها على امتعاض مشيرة بالايجاب .

ـ إذن ، لمـاذا لم يعين سفيراً في الخـارج ، مثل سائر الدكاترة المغاربة ؟

سوت عزيزة من وقفتها ، واجابت برصانة وجـلال ، وهي تشد على كل كلمة تنطق بها :

– ان للدكتور ادريس مهمات توجب عليه ان يقيم بداخل البلاد ، واجبه هنا ، وهو لا يقل اهمية عن السفراء ، في سبيل رقي وسمعة أمتنا العزيزة ! بل اكثر من ذلك ، انه يسهم في رقي الانسانية جمعاء .

*

خيم الصمت ، بعض الوقت ، على الغرفة كلها ، وظهرت أمارات الاعجاب والدهشة على الشرطي الثالث ، بينما وقف الثاني يرمق ادريس وعزيزة ، باحترام وتقدير . واسر إلى رفيقه :

– اظن اننا تسرعنا وابتعدنا عن دروب التروي والحكمة . علينا ان نخشى دوماً اصحاب الكتب والمجلات . اصارحك بأنني لا اريد ان احرم اولادي ثمن الخبز اليومي .

ثم تقدم الشرطي الاول خطوة من ادريس وقال ، بدعة واحترام :

– سيدي الدكتور والفقيه الاستاذ الجليل ، قبل ان نعود الى قضية الطفل التي ليست ذات اهمية كبرى ، ارجو من لطفك أن تفحصني . فقد يحدث لي مراراً كثيرة ان ..

قاطعه الشرطي الثالث :

– ان تراوغ وتكذب في لعبة الورق !

واضاف الشرطي الثاني :

– ومع ذلك يخسر !

اخذ الشرطيان الثاني والثالث يقهقهان . فاستشاط الشرطي الاول غضباً ، وصاح بهما متوعداً :

– لا تضحكا مثل المجانين ! آمركما بالصمت والسكوت !

امتثل الشرطيان ، ووقفا وقفة الاحترام والاذعان ، بعد ان ضربا الارض بأقدامهما :

– سمعاً وطاعة !

ولما استعاد الشرطي الاول بعضاً من هدوئه ، تابع حديثه :

– اجل ، كنت اقول لك يا سيدي الدكتور ، انه يحدث لي ان أتقيأ غدائي مراراً كثيرة . مع اني لا آكل اللحم إلا مرتين كل يوم مع شيء من «الخليع». ولا اخفي عنك انني لا اتناول منه إلا علبة في كل يومين . واتناول يومياً الزيتون الاسود .. وماذا ايضاً ؟ إيه ! وعند كل وجبة آكل بيضتين ، مع إبريق من الشاي لأعين الهضم . وطبعاً آكل الخبز. من الاكيد انني لا احب الخبز كثيراً ، فأنا آكل منه الكمية التي يحتاج اليها انسان يجهد ويتعب مثلي . وهناك ايضاً السردين ولا تظن انني شره ، يا حضرة الدكتور ، فزيت السردين ينفحني بالعزم والقوة للقيام بالعمل الشاق الذي وكل إلي .

قطعت عزيزة عليه الكلام قائلة :

ـ لا تتعب نفسك ! ان الاستاذ ادريس دكتور في الآداب ، وليس طبيباً يعاين المرضى ويصف الدواء . فأمراض الجسد لا تدخل في نطاق عمله .

فرد الشرطي الثالث هازئاً غير مصدق :

ـ اما ان يكون طبيباً ، اوليس طبيباً .. هل تظنين اننا اغبياء جهلة حتى نؤمن بأقوالك الخرقاء ؟

وعاد الشرطي الاول فقال:

ـ لا تخف يا حضرة الدكتور ، سأدفع لك اجر العيادة ، حالما اقبض راتبي في آخر الشهر . اظن ان قلة المال في يدي تزعجك ، أليس كذلك ؟

ـ انك على ضلال يا سيدي . الحقيقة فيما قالته لكم السيدة عزيزة. انا لست طبيباً ، ولو كنت طبيباً لعالجتكم جميعاً بكل سرور،وبدون اي مقابل . ولكن ..

فقال الشرطي الثاني :

ـ انه طبيب مغناج ! يسعى الى ان نزيد من التوسل حتى يضاعف الاجر . انها سياسة اعرفها ...

فتأوه الشرطي الثالث واضاف :

– طالما ارغمونا على ان ندفع ٩٠٠ فرنك لقاء وصفة طبية لا تتجاوز السطرين مع التوقيع !

وعلق الاول :

– اؤكد لك اني رأيت يوماً وصفة طبية لا تتجاوز سطراً واحداً فحسب ، ومع ذلك دفع الاجر عنها ١٠٠٠ فرنك !...

وتابع الشرطي الثاني :

– لا تنس ان اغلب الوصفات الطبية تستحيل قراءتها ، وفك رموزها . فالاطباء يتعمدون ذلك . ان احد اقاربي ، رغم كونه امضى في فرنسا خمس سنوات، واشترك في حرب الهند الصينية ، لم يستطع ان يقرأ وصفة طبية !

ابتسم الشرطي الثاني وقال :

– لا اعرف افضل من مهنة الطبيب ، تجعل صاحبها غنياً بسرعة ، فيكدس المال كما يشاء . لو كنت طبيباً لكتبت كل يوم ، مئات ومئات من الوصفات ، وبذلك تتوفر لي في ساعات قليلة ثروة هائلة ، وبعد ذلك انصرف الى هوايتي المفضلة، الى لعب الورق ، والى الراحة.

فأسكته الشرطي الاول موبخاً :

ـ كفى ! انك تهرف وتهذي . آمرك بالهدوء والصمت !

*

مرت فترات سادهـــا سكوت كثيف ، قبل ان يلتفت الشرطي الاول الى إدريس :

ـ والآن ، اين مكان الطفل الصغير ؟

فسألت عزيزة مذعورة :

ـ اي طفل تعني ؟

أجابها الشرطي الثاني ، برياء وجفاف :

ـ إيه ! لماذا تفتعلين البراءة ، انت بدورك ؟

وارتفع صوت الشرطي الاول جلياً حاداً :

ـ لقد بلغ الدوائر المسؤولة، في هذا الصباح ، ان امرأة دخلت هذا البيت من باب سري ، تدفع عربة فيها طفل ، بسرعة وحذر . ويغلب على الظن ان الطفل الذي في العربة هو الذي سرق امس من مستشفى ابن سينا . اني لا استطيع ان اصف ما ينتاب والدته من حزن وغم ، بعدما لاقته من ضروب الآلام والاوجاع عند الولادة .

اشار الشرطي الثاني إلى إدريس ان يترك المخاتلة والجدال ، حتى لا

يرى ما لا يطيق .

*

تقدمت عزيزة من الشرطي الاول ، وبعد ان ألقت عليه نظرة المستطلع ، صرحت في لهجة باردة مطمئنة :

– انا هي المرأة التي تتحدثون عنها .

فاستبشر الشرطي الاول ، وتفحص عزيزة وادريس ، ثم ابتسم لرفيقيه :

– ما احسن الاقرار ، هيا بنا إلى مكان الطفل .

– ان الطفل الذي هنا ، ليس بالطفل الذي تبحثون عنه ..

ابتلع الشرطيون ابتسامتهم ، وجمدت حركاتهم . واضطرت صوب الشرطي الثالث :

– انها كذابة تفتعل الخداع ! هذه المرأة الشريرة ، اقوالها لا يجوز ان يغتر بها اناس مثلنا . لسنا ، يا سيدة ، من المبتدئين . نحن لسنا من ذلك العجين .

فسألها الشرطي الاول متصنعاً اللطف :

– هل نستطيع ان نعرف مكان وجود الطفل الذي تتحدثين عنه؟

– انه ليس بعيداً عن هنا . بعد لحظات سأريكم إياه ، بكل سرور .

لكن ، اسمحوا لي : اريد ان اعرف اذا كان الولد المسروق الذي تفتشون عنه طفلا ام طفلة ؟

ارتبك الشرطي الاول ، فأسرع يقدم لعزيزة سيجارة :

– احرقي رأس هذه السيجارة . . .

– شكراً . لا أدخن أبداً .

ضحك الشرطي الثالث ساخراً :

– ما اغرب هؤلاء الناس ! انهم لا يدخنون ، ولا يسرقون الاطفال ، ولو كانوا اطباء حقيقيين لعالجونا بدون تعويض ! انهم من اولياء الله ، رضي الله عنهم ! لا يدخنون ، ففي اي شيء ، إذن ، يصرفون اموالهم الكثيرة ؟

ورد عليه الشرطي الثاني ، بلهجة اوفر تهكما :

– ومن اين لهم هذا المال الكثير ؟ فهذا الرجل ليس شرطياً ، ولا وزيراً ، ولا طبيباً ، ولا سفيراً . . .

*

استردت عزيزة رباطة جأشها ، وقالت برصانة ووثوق :

– لن اخفي عنكم ، ايها السادة ، مدى الحيرة التي ستتخبطون في

لجها . فالطفل الذي تبحثون عنه له من العمر يوم واحد ، لانه ولد امس لا غير . اما الولد الذي سترونه الآن ، فقد توالت عليه ليـــالي وايام كثيرة . انه فطم منذ عيد الاضحى الماضي !

فسألها الشرطي الثاني :

ـ ذلك الولد ، هو ابنك ؟

ـ لا ، ياسيدي !

وسأل الشرطي الاول :

ـ من هم اهله ، إذن ؟ ألا يكون هذا الدكتور الذي ليس طبيباً هو والده ؟

ـ لا يا حضرة السيد .

ألح الشرطي الاول في الاسئلة عـن علاقات الطفل بعزيزة ، وسنه بالضبط ومحل ولادته ، واسم والديه ...

أدركت عزيزة انها انتصرت على مخاطبيها وانتزعت منهم الاعجاب، فنظرت الى الشرطي الاول ، وقالت ، وفي صوتها شيء من التأنيب :

ـ انك مكلف بأن تبحث عن الطفل الضائع ،لا عن هوية كل طفل تجده في طريقك ! فليس لك اي حق في ان تستفسر ، عن مكان،ونسب

وحسب كل اطفال مدينة الرباط ! المهنة شيء ، والفضول شيء آخر .

قطع عليها الشرطي الثاني الكلام بوقاحة .

– ليس لك ، ولا لهذا الطبيب المخادع ، أن تصدرا الاوامر لنا نحن رجال الامن والحكومة !

زجرته عزيزة وهي تشحن كل كلمة تنطق بها حزماً وقوة :

– ان الذي يأمر ويصدر القوانين ، ليس انتم ، رغم بزاتكم العسكرية ، ولا حضرة الاستاذ ادريس ، رغم شهاداته . الاوامر يصدرها نواب الامة المغربية وحكومة جلالة الملك نصره الله ! والحكومة كلها في خدمة الامة ، كل رجالها موظفون معي ومعك ومع جميع افراد الشعب . وهناك فوق الجميع ، الشريعة المقدسة التي على كل انسان ان يحترمها ويخضع لها .

*

بهت الشرطيون لدى سماعهم هذه المرأة تطلق الاقوال بصوت واثق رزين ، وتقارعهم برجاحة عقل قلما تستقيم لاكثر الرجال ...

واستأذن الشرطي الاول عزيزة قائلا :

– ارجو من لطفك ، يا سيدتي ، ان تدلينا على مكان الطفل فنوفر

على انفسنا الجدال ونحرر التقرير.

اتجهت نحو الباب الداخلي ، بخطوات هادئة ، وعلى شفتيها نصف ابتسامة :

ـ الحقوا بي لتروا الطفل !

الفصل الخامس

بقي الباب الداخلي مفتوحاً ، فتفشت في الغرفة حرارة خانقة محت كل دفء ربيعي منعش ، وتحول النسيم البليل الى شحنات من الجمود الضاغط الخانق . جلس ادريس على طرف المكتب يؤرجح رجليه ،بتوان وكسل ، بينما العرق الغزير يتصبب من يديه ، ورقبته ووجهه . كان ، بين فينة وفينة ، يتناول منديلا تفوح منه ملوحة ممزوجة برائحة الحرارة، فيمسح به العرق الملتصق على جسمه . الحرارة تضايق أنفاسه . وجسمه يتفاعل كأنه مخبر كيماوي . رمى ادريس عنه الطيلسان ، واستسلم لدنيا الخمول والتبلد . لم يدر كم هدر من الوقت قبل ان يستعيد نشاطه ويلملم ما تشعث من افكاره . انه الآن يتحكم بقواه وعقله، فلا شيء إذن يعوقه عن مباشرة العمل . ف (دادا) قد شغلت عنه بالطفل تلاعبه ،والشرطيون قد غادروه...

إدريس واحد من اولئك الذين لا يذعنون : إنه ينقاد بسرعــة ، ولكن يصعب عليه نسيان ما حدث حتى يتسنى له الخروج السريع الحاسم من دوامة المشاكل والتناقضات . لا شك انه حيا متمهلا نحو الانفعال والتأثر عندما كان الشرطيون في بيته ، ولكن الآن ، بعد ان ثار داخله واعتلج ، ولمس عرى الحقيقة ، ها هو ينكفىء على ذاته فلا يرى الحياة إلا من خلال التجربة التي عاناها . واي عجب في ذلك ؟ انها عقلية المثقفين ، في شمال افريقيا ، اولئك الذين يقفزون الى نهاية المضمار فجأة ... وبعد ان تنفس ادريس الصعداء ، وتحسس واقعه ، التفت الى عزيزة ، وقد جلست الى الآلة الكاتبة ، وكأنه يتمم حديثاً داخلياً :

– امتنا تمر الآن بفترة من التطور والانتقال . فلا يحق لنــا ان نتطلب منها موظفين يتصفون بالحكمة والكمال والدربة . ان الشرطيين الذين كانوا هنا يتحلون بحسن النية ، رغم ما يعتورهم من شكاسة وفظاظة. فأكثر ما نحتاجه في فترة التطور هذه ، هي التوعية الوطنية قبل الاخذ الاهوج من الثقافة والعلوم المتنوعة . وبديهي انه لا فائدة ترجى من التقدم التقني ما لم تواكبه تنشئة إنسانية واعية حقاً . فالتوعية الوطنية أس للحضارة ، ونقطة انطلاق ، فبدونها لن يستطيع اي شعب ان يحتل مكانه اللائق ، تحت الشمس .

كانت عزيزة تنصت لادريس ، ونصف ابتسامة يضفي على وجهها روعة حنون ، تنصت وتحرك رأسها ، من حين لآخر ، مشاركة منها وتأييداً :

ـ ما قلتم ، يا سيدي ، هو الصواب . ولكن ، من سيتولى امر التوعية الوطنية يا ترى ؟ من الطبيعي ان تجيبوا : « المثقفون » ! ولكن مع الاسف الشديد ، ان ما يتصف به من الغرور واللاا كتراث اكثر المثقفين عندنا يضاد تماماً روح المواطنة . فغالباً ما يخنق المثقفون ما في صدورهم من اهداف كان عليهم الدفاع عنها والتبشير بها ، ويتلهون بالفجاءة المتهورة عن تنشئة شعبنا . فالمحسوبية اصبحت مذهباً ومنهجاً ، والوصولية غاية وقيمة ! يحدوهم الى ذلك حب المال وسراب السلطة والجاه .. ولكني لا انكر وجود فئة من المثقفين النزهاء الذين نذروا جهودهم لخير المجتمع . ومهما كانت قلة تلك الفئة فهي فخر للمغرب الحبيب وآماله .

*

انطلق تصفيق من داخل البيت ، والتفت ادريس وعزيزة ، فأبصرا على العتبة شاباً قوي البنية ، غطت جبينه الفسيح خصلة عنيدة من الشعر ، وشعت فوق انفه الافطس عينان حولهما هالة من الضيق والحزن

لبس قميصاً ابيض ، وانسابت على صدره رابطة عنق من الحرير .
كل شيء في هندامه ولباسه يجعل الناظر اليه يظنه مدير ديوان إحدى الوزارات ، او ممثلا تجارياً في شركة كبرى . تشع منه رائحة العطر والصابون وتلاحظ على ثيابه امارات المكواة . تأبط مجموعة من الصحف العربية والفرنسية. أهو من فئة المثقفين ؟ غالباً ، فالمثقف المغربي يبالغ في العناية بهندامه ، حتى ان ما يقضيه من الوقت في ذلك ليفوق ما يخصصه للقراءة والعمل الفكري .

ركض ادريس نحو الزائر ، صارخاً في دهشة وغبطة :

ـ أهلا وسهلا ، بابن العم العزيز ! ارى انك لا تقلع عن عادتك : تحب دائماً المفاجآت ! وكالمعتاد ، ما تزال تتخطى ، بكامل الحرية ، الحواجز بكل انطلاق ! أهلا بعظيم .

فأجاب عظيم ، مازحاً :

ـ هيه ، هيه ! وكعادتي افاجئك وانت تشرح نظريات تذهب بك في دنيا الشمول حتى الاغراق ! فمتى سأدخل عليك فلااجدك في هيكلك المقدس بين اكوام الكتب والصحف والاوراق ؟

خطا عظيم نحو ادريس ، فتعانقا ، ونظر عظيم الى ادريس :

ـ يا ابن العم ، احس بالشوك الحاد في لحيتك . فأنت كما

عهدتك ، تخل بأبسط واجبات الاناقة ! قل لي بربك ، كيف تجرؤ ان تجلس قبالة سيدة جميلة كهذه (واشار الى عزيزة ، بانحناءة مغناج) دون ان تحلق لحيتك ؟

– خل عنك هذا ، يا عظيم ! ما اظن ان السيدة عزيزة تأخذ علي انها تعلم ان هذه الصبحية خصصت للعمل و ..

– اذن ، علي ان انسحب حتى لا اعوق سير عملكما اكثر . لقد ظننتك وحدك هنا ، فدخلت من باب الحديقة دون ان ارى احداً في طريقي اليك ..

– لا حرج عليك يا عظيم (والتفت ادريس الى عزيزة وتابع) : استسمحك ياسيدتي ، لأني لم اعرف احدكما بالآخر . هذا عظيم ، ابن عمي الشقيق انه مهندس ، وملحق ثقافي باحدى سفاراتنا بالخارج . انه شاب خفيف الظل يهوى المزاح كثيراً . (ثم لعظيم) : السيدة عزيزة . لقد تلطفت نزولا عند رغبة زوجتي ، فقبلت ان تنوب عن كاتبتي ، طيلة اسبوعين .

دنا عظيم من عزيزة ، وشد على يدها بحرارة :

– تحياتي ، واحترامي يالالا عزيزة .

وسأله ادريس :

– كم سيطول مكوثك بالرباط ؟

– لن اغادرها بعد الآن !

– كيف ؟.. هـل تسمح لك الوزارة بذلـك ؟ ومنصبك في السفارة ؟

– منذ امس اصبحت بلا عمل ، عاطل ! ليس في ذلك اي غرابة . لقد قدمت استقالتي .. وسأحدثك عن ذلك في الايام القادمة . (والتفت الى عزيزة وتابع) : ارجو ان تسمح لي السيدة بأن اهنيها ! نعم ، كل التهاني الحارة على ما قالته قبل ان ادخل عليكما . لما بلغت الباب الداخلي سمعتكما تتناقشان ، فتريثت في الدخول حتى لا احول دون متابعتكما التحدث حول عبث المثقفين .لقد كان ، لعمري ، حديثاً زاخراً بالمنطق، مفعما بالحقائق . لكن معذرة عن تطفلي وفضولي !

فردت عليه عزيزة ، وقد اصطبغ وجهها حياء :

– ذلك لطف منك ، ياسيدي . الاستاذ ادريس احق مني بالاطراء ، فهو الذي ابدى رأياً قوياً في الثقافة والمثقفين .

أردف عظيم مبتسما :

– وهم ، في اكثرهم ،ذوو سلوك يدعو الى اليقـظة والاحتياط ! (والتفت الى ادريس) : أليست هـذه هي الحقيـقة ، يا حضرة البروفسور ؟

فأجاب ادريس تحدوه الرزانة :

– لا يحق لنا ان نرتمي في احضان المبالغة والمغـــالاة . ان في كل الناس الخير والشر . فلا مندوحة لنا من الاعتراف بـأن جانب الجودة اكثر من جانب القبح عند المثقفين المغاربة .

اسرع عظيم ووضع على الطاولة ما يحمله من جرائد ، ثم جلس على كرسي قريب . وبعد ان ازاح خصلة الشعر عن جبينه :

– قدر لي أن أتعرف الى بعض المثقفين المغاربـــة الممتازين الذين فقهوا كل ما تتطلبه الثقافة منهم . ولا تنس انك واحد منهم ،ياادريس. ومن حسن طالعي ايضاً انني صديق للكثير منهم . ولكن هؤلاءالمثقفين الممتازين قلة زهيدة . فما اكثر عدد المثقفين بالعـــالم الذين انتهجوا سبل العجرفة والاستعلاء فظنوا ، على خطأ ، بأنهم القطب الذي يدور حوله عمران وحضارة الامم ، او على الاقل حياةشعبهم .انهم يعتقدون بأن عيون جميع الناس ترتمي عليهم وحدهم ،اجلالا واكباراً . ومن ثم ظن بعض المثقفين المغاربة بأنهم كواكب متألقة في بلدهم : تأنق متطرف ، حديث صلف ، مشية صعراء .

واردفت عزيزة هازئة :

– يعتقدون كلامهم وحياً انزل من السماء !

ضحكت عزيزة ، ضحكة خفيفة ، فجاراها ادريس وعظيم . ثم قام ادريس وقد ابتعد عن الطاولة ، واقترب من المتكأ فارتمى عليه ،وشبك فخذيه . فنظر اليه عظيم ، وقال في ابتسام قاس :

ـ انك ، يا ابن العم ، تحترق اشتياقاً الى التحدث عن المثقفين ، وتقسيمهم الى فئة صالحة والى اخرى غير مهضومة لديك . واني شخصياً من الذين يأخذون برأيك هذا . ولكن ما يضايقني ويزعجني هو اقتناعك بأن عدد المثقفين الحقيقيين اضعاف اضعاف المثقفين الفاشلين !

التفت عظيم الى عزيزة ، كأنه يريد معرفة رأيها في الموضوع ، او بالاحرى كأنه يستجدي موافقتها .

فأجابته غير آبهة ، لما في نظراته من تودد وحنان ، اجابت على الفكرة ، لا على النظرة ، ولا على الابتسامة الظليلة . انها موافقة على تقسيم المثقفين الى فئتين ، ومتفقة على كون الاغلبية لا تعمل على تنغيم السلوك الشخصي مع الحصيلة الثقافية . انها تفضل من الناس من يفعل ما يقول ،فالثقافة ليست اسحاقاًوعطوراً للزينة والمظهر الخارجي فحسب .

ادريس ليس على رأي محاوريه . ان ما سمع احدث فيه انفعالا ، فقال بحدة :

ـ لا اوافقك ، مطلقاً على زعمك !

سوّى عظيم من جلسته ، ووجه كلامه الى ادريس ، في انطلاق:

– هل انت جاد ام مازح ، عندما تدعي أن اصحاب الثقافة الجوفاء لا يزخرون منتشرين في كل متر مربع من وطننا ؟ فلكي تلمس الواقع، ليس عليك إلا ان تسير في شارع محمد الخامس حوالي الساعة السادسة مساء، لترى جماعة الأدعياء المتكبرين يتبختون كالطواويس، مثل نجوم السينما ! فمن الطبيعي ان تكون الثقافة ، في نظر هؤلاء ، مجرد ابتسامات مصطنعة ، ومضغ عبارات، والسير في الشارع ، وتحت الابط حقيبة او مجلات وصحف .

ضحك عظيم وهو ينظر إلى عزيزة ، ينظر اليها و كأن حاله يقول : « إننا حليفان » !

*

ترقرقت ابتسامة على شفتي عزيزة ، ابتسامة الخفة المحتشمة ، اهتزت لها احشاء عظيم . ما امضى تأثير الابتسامة اذا انبثقت عن العفوية والبراءة! كان محيا عزيزة براقاً ، في ابتسام حرون لا يستطيع مقاومته حتى اولو العزم . الابتسام الطف تعبير عن اغنى اسرارنا الوجدانية . إنه الموهبة المشتركة بين كل الناس ، واللهجة الفصحى التي ترتوي منها كل الاصناف والاجناس البشرية على السواء . عزيزة وابتسامتها ، عظيم وتخيله المتدفق،

ادريس ووقاره الحائر ... الغرفة صامتة ، الامكنة لا ترد إلا صدى الامكنة ، أما عالم الوجدان فلا يخضع للأبعاد المألوفة . يعرض امانته على الفن ، وعلى اللغة ، فيحاولان حمل الأمانة ، ولكنهما يخفقان . لا شيء في الوجود بقادر على تحمل كثافة الآهات والابتسام والنظرات ، سوى عمق الصمت ، وعناد الكائنات البشرية في ان تكرر التساؤلات ، دونما انقطاع .

اختطف عظيم نظرة من محيا عزيزة ، كمن يريد استضاءة، فشعرت عزيزة بأن عظيم متردد ، يريد ان يقول شيئاً ولكن لسانه لا يساعده، فنظراته نظرات تقدير واستغاثة ، ففاتحته :

- حقاً ، إن وضع مثقفينا يتطلب دراسة متينة وتأملا .

لم يكد عظيم يسمع بجمل عزيزة حتى تحمس فانحلت العقدة من لسانه:

- كلنا يعرف شعارهم السحري الوحيد : « الفن للفن ! » إنه شعار يجعلهم يشكون في اهداف الثقافة. ألا يعتقدون ان الشعب لا يستطيع ان يبلغ الى مستواهم الثقافي الرفيع ؟.. فليس لهم والحالة هذه ، الا ان يقبعوا في أبراجهم العاجية . إن الرجل العظيم ، في رأيهم ، هـو الذي يتعشق العزلة ، ويركن الى الانفراد ، دونما اي اهتمام بما يعتور ابناء امتهم من بؤس وتأخر . واكثر ما يرتاحون اليـه هو الانسان بالمعنى

الشامل ، المطلق الذي لا إطار له في التاريخ وفي المجتمع : « نحن نخدم الانسانية ! » . طبعاً إنسانية ذلك الانسان المجرد الذي لا يدرك ما في مواقفهم من انحلال ، وما في ثقافتهم من جمود ومثل ضحلة وقيم عقيمة. إن هي إلا ثقافة الأنانية والغرور .

قطع ادريس عليه الكلام :

ـ لا ، لا ! لقد قسوت جداً على المثقفين ! أنصف ، ولا تجازف ! لقد عممت اكثر من اللازم ، إن المبالغة داؤنا العضال .

ـ أجل ، فلننصف المثقفين . لكن ، قل لي : ألا ينكر أصحابك كل ما في سواهم من سجايا وصفات حميدة ؟ ألا يبالغون في الغرور عندما يجلسون وراء مقود سياراتهم الفخمة ! أينصفون إذا أطلوا من شرفات داراتهم ، أو إذا خرجوا من ابواب المصارف ، وعباد الله يتجرجرون خلفهم صارخين :« نحن جياع ! نحن جياع ! أعطونا ما نسد به الرمق » ؟ فهذا المواطن البائس ليس الانسان الخيالي الذي يتمثلون ، الانسان الحبيب الى قلوبهم اليابسة وأحاسيسهم الحائرة.

ـ لا تنس ان المثقفين كبقية الناس بشر وليسو آلهة ! هل هم مسؤولون عن فقر وحرمان الآخرين ؟

انتفض عظيم صارخاً :

ـ الله اكبر ! يا سلام ! ما أمتع أقوالك ! إذن ، واجبهم هو الاطناب في شرح خمريات أبي نواس ، وان يسلطوا الاضواء الكاشفة على الهوى والضنى في «ليالي» (الفريد دي موسيه) ! . . .

تثلج ادريس في مكانه ، لا ينبس بكلمة ، وعلامات عدم الرضا بادية عليه . حملة عظيم عنيفة ، ولا مبرر لها . ان المثقفين هم الاطر التي تعمل جادة على التنمية الاقتصادية ، وتنشر التعليم . نعم ، ربما كان عظيم على حق ، بالنسبة للبعض ، لكن لماذا يحشر المجموع في حكمه القاسي ؟ آه من المبالغات ! إنها داؤنا العتيد !..

*

بعد لحظات ، استأنف عظيم ، بصوت هادىء :

ـ أعتذر. لقد تخطيت آفاقاً تذهب بنا بعيداً . ثم ، من اين لي أصالة المنطق ورجحان الثقافة لأقوم بدور البروفسور ، خصوصاً وأنا في حضرة الدكتور ادريس ؟ ! (والتفت الى عزيزة معتذراً) : لا شك انني ازعجتك بثرثرتي ، يا سيدتي .

ـ لا ، لا ! يا سيدي . ما قلتم إلا أشياء ارتاح اليها ، لأني أومن بها.

وأضافت بعد سكوت قصير :

ـ إذا كان الاستاذ السيد ادريس لا يرى مانعاً ، رجوت منكم تعريفاً للفئة الثانية من المثقفين ، أعني من هم جديرون بكل ما في الثقافة من

خبر وشرف وجمال .

- لا مانع عندي ، إذا شاء عظيم . ولكن أرجو منه ، قبل ان يشن هجومه ، من جديد على المثقفين ، ان يلزم جانب التروي . إنـــه ، كما اعهده ، ينظر الى الأشياء من جهة واحدة ، وهذا عيب يضيع علينـــا الحقيقة . على ان عظيم واحد من هؤلاء المثقفين .

فعقبت عزيزة مبتسمة :

- من الفئة التي سيحدثنا عنها ؟

*

استولت على عظيم موجة من الحبور هزت كيانه ، حتى اعماقــه ، كأنه تلميذ قد اجتاز الامتحان بنجاح : إنها نشوة الرجـولة المغربية . فانطلق صوته يرن ، مخاطباً عزيزة :

- اتويدين سيدتي ، أن ترمي بي في لجج لا طاقة لي بها ؟ إني خجول ، لذا قد تستعصي علي الكلمات وتخونني الافـكار .

فقهقه ادريس :

- يا لسخرية الاقدار ! أمثلك يهاب ويخجل ، ولك ما لك مـــن جرأة وحنكة !.. كل دماغك حيل !

خيم الصمت فترة ، فاغتنم عظيم الفرصة ليرشق عزيزة بنظرات فيهـا

الحزن والشوق ، وفيها استفسار . أما عزيزة ، فقد تبين لها خطل ما طلبت ، فها عينا عظيم تلاحقانها ،وتبطنان اشياء كثيرة مقلقة . لم يفتها ان تتحسس مدى المراوغة والمراودة التي تفور وتمور في صدر عظيم . انها جد خبيرة بأمثاله من الشبان .

*

عظيم شاب شاطر وداه . وجهه ليس بغريب عنها . أين رأته فيما قبل ؟ سنه تتراوح بين خمس وعشرين وثمان وعشرين . إنه طويل القامة ، مستقيم الهندام ، منسجم العضلات ، على وجهه الاسمر سليم العزم ، وقد اختلط بطراوة الشباب . كانت عزيزة تتفحص الماضي علها تتذكر أين ، ومتى رأت عظيم ، وإذا بادريس يبدد الصمت بقوله :

– لقد حان الوقت لتفكر في الزواج ، يا عظيم . عليك أن لا تنتظر اكثر مما فعلت ! ألا جديد في حياتك ؟..

كأن سؤال ادريس ايقظ عظيم من شروده ، فأجاب مرتبكاً :

– لم تدق الساعة بعد ! وكل آت قريب .. فعندما تسنح الفرصة ، توجد القلنسوة الملائمة للرأس ...

– لقد أنهيت دروسك ، منذ سنوات ، وحتى الآن تقول ان الوقت لم يحن ؟ ماذا ترتجي من الزوجة ؟ هل الثروة ، ام الجمال ، ام ماذا ؟

– شعاري في الحياة واضح يتلخص في المثل المغربي : « من يتزوج

امرأة لاجل مالها مات فقيرا ، ومن يتزوج امرأة من اجل جمالها مات اعمى » .

فسأل ادريس ، هازئاً :

– وما سيكون حافزك الى الزواج ، إذن ، إذا لم يكن لا المال ولا الحسن ؟

– الحب ! أجل ، الحب !

*

تساقطت هاته الكلمات من فم عظيم وكأنها حجارات حاول ان يرجم بها ابن عمه .

«الحب!» . لفظة قليلة الحروف ، كثيرة المفاهيم ، انها الميثاق الغليظ بين الانسان وذاتيته ، نقطة التواصل بين الذوات . ما اثقلها في ميزان الوجدان !

لم يع ادريس كلمة «حب» التي صدع بها عظيم ، لم يسمعها إلا بأذنيه ، دون مشاركة الحاسات الاخرى ، ودون مشاركة القلب . فاستفسر من جديد :

– تعني بلا شك الجمال ، فلا حب إلا إذا نبع من شيء جميل في الشخص المحبوب ، إن هذا من البديهيات ...

- الحب الذي أعنيه لا ينبع إلا من التقدير والاحترام . الاحترام الذي يتجدد ، ويمتد ، ويتجذر . ويوم يجف احترامك لشريكة حياتك، آنذاك لن تزهر بعد السعادة في بيتك . الست على حق ، يا سيدتي عزيزة ؟

أجابت عزيزة ، مع شي من الارتباك ، بأن الاحترام اصل لكل رباط زوجي ، فبدونه تنفسخ عروة الازدواجية الموحدة . بيد ان الاحترام والتقدير يتكونان من تجربة متكررة واعية . فكم زلزلت المفاجآت من عزم ، وجعلت من رشيد غير رشيد !.

انبرى عظيم يعاكس رأي عزيزة . فالاحترام ، في رأيه ، قد يتولد من مجرد التقاء خاطف ، او ندوة قصيرة الأمد . كان عظيم يتحدث ، وعلى شفتيه ابتسامة مبطنة بألف معنى ورغبة ، ونظره يبتلع عزيزة ، وقد رنت الى الارض متضايقة ، لأنها تفهم لغة العيون ، ولكنها تشمئز من النظرات المشحونة اكثر مما تسمح به اللياقة . اما ادريس فيسبح في عالم غير عالم النظرات والابتسام . تنحنح قليلا ، ثم قال لابن عمه :

- جل ما اتمناه لك ، يا اخي ، هو ان تسنح لك الفرصة قريباً . الزواج شيء اساسي لاعتدال المزاج .

- لا اخفي عنك انني لقيت سانحتي !.. لهذا تراني متفتح القريحة ،

هذا الصباح . أنا فرحان ، فرحان !..

– مبروك ! مبروك ! ومنذ متى حدث ذلك ؟ هل لنا ان نعلم .. فنقاسمك اغتباطك وسرورك ؟.. ومن هي الخطيبة المباركة ؟

– عزمت على الخطبة في هـذا الصباح ، واتمنى ان تتدخل ، باسمي لدى السيدة. إني لم اخاطبها في الموضوع بعد . لقيتها قبل وصولي عندك ، فزلزلتني ملاحتها . لقد وقعت في شبكة حبها ، قبل اليوم ، أحببتها من خلال ما اسمع وما اعرف عنها .. نعم السيدة ! الطرف المجهول في القضية ، هو انها لا تعرف عني اي شيء ! سأعتمد عليك ، يا ادريس ، لتكون لي خير وسيط وخير ضامن لديها . ان بنفسي ثقة بأن قلبينا يتفاهمان . هذا اليوم يوم ستزدهر فيه آمال حياتي .

– لا افهم اقوالك . فكلها ابهامات والغاز ! أفصح عما تقول !

*

وقع هذا الطلب من نفس عظيم وقع محرض في عملية نفسانية يتناقض فيها الحماس بالبرودة المجمدة للاعصاب .

أين فصاحة عظيم ومبالغاته ؟ احمر لونه ، واخذ يتردد ، إن سؤال ادريس يتعلق بموضوع يهم جداً عظيم... فما بال لسان الديبلوماسي يتعثر؟ تظهر على عظيم حيرة من لا يدري أيتكلم ام يسكت ،ومن لا يدري من

أين يبدأ الحديث . عظيم يبحث عن لهجة تتحلى بالصدق وبالحنان . وبعد تردد ... تقبض على كل قواه وارتمى في الحديث :

- ذهبت ، هذا الصباح ، الى مكتب الشرطة ، بالدائرة الثانية، حي (اجدال)، ودخلت على الرئيس ، وهو من اصحابي ، فوجدت بمكتبه ثلاثة شرطيين يحكون عن سيدة مغربية بكل اعجاب . فهمت من الحديث انها غير متزوجة ، وذات ثقافة واخلاق ممتازة .. امام هذا الاجماع على الاجلال ، التفت إلي صديقي ليحضني على الزواج بها : « ما دمت اعزب ، وتبحث عن الثقافة ، والذكاء والنبل ، ستكون محظوظاً ان استطعت ان تمضي حياتك في رفقة هذه المرأة » .

سكت عظيم ، وارسل نظرات خفية نحو عزيزة ، ثم نحو ادريس ، قبل ان يضيف :

- لم تكن نصيحة صاحبي الشرطي الا النقطة التي تجعل الاناء يفيض، فأنا اعرف السيدة ومعجب بها ، منذ سنوات .. فلقد عرفتها منذ عهد الاستقلال ، وطالما سمعت عنها وعن مزاياها .

كان ادريس ينصت الى عظيم ، فاغر الفم ، جاحظ العينين . فالموضوع قد استبد به واستحوذ على مشاعره ان بعض المواضيع ترتمي علينا ، عنيدة ، فتحرك فينا الفضول ، وتلتصق بالذهن مستحوذة

مستبدة . طلب ادريس من ابن عمه ان يسترسل ، فصادف هذا الطلب صدى رطباً طرياً في نفس عظيم . اما عزيزة ، فقد انزعجت من عيني عظيم الحاميتين ، ومن لهجته اللاهثة . سئمت الوضع ، خصوصاً وعينا عظيم يلتهمان وجهها وتسيحان ، بفضول متزايد ، في تضاعيف جسدها . ولكن لباقة عزيزة لم تمكن عظيم من ان يقرأ أية إمارة سأم او ضجر على وجهها ، في حين انه وجد ، لدى ادريس ، ما يشجع على الاسترسال :

– اهتديت الى البيت الذي تقيم السيدة فيه ، هذا الصباح ، فهرولت اليه توا ً ، لانه بيت افراد من اسرتي ...

☆

ارتبك عظيم واخذ يتردد ، فخفض من عينه ، واوشكت الكلمات تختنق في حنجرته . دخل في صراع عنيف مع ذاته ... وبمشقة انفجر صوته ، من شفتيه المرتجفتين ، وتدحرجت الفاظ متدافعة يعصرها التأثر :

– نعم ، اؤكد لك ، يا ادريس ، انني وجدت فرصتي السعيدة ، ووفقت الى الاجتماع بالسيدة ، فقد سمعتها تتحدث عن شؤون الفكر والثقافة ، فزادني ذلك يقيناً على يقين . اجل ، لقد رأيتها ! وتحدثت

اليها !...

رفع عظيم عينيه ، والقى بهما عـــلى عزيزة ، في نظرات عريضة . فاحمرت وحنت رأسها . كيف الخلاص مـن هذا الجو ? واخيراً تململ ادريس ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ذات معان : لقـــد ادرك ما يجول حوله !.. وبقي عظيم يتطلع في الارض امامه لحظات ، قبل ان يتابـع :

– ما اروع هذا الاتفاق ! صدفة فريدة !.. فما اندى هذه اللقيا بين مثقفين ينظران في نفس الاتجاه ، وبنفس المعايير ! .. من الاكيد ان اصبع الاقدار تسوق الحياة ، وفق حكمة عليا ! ..

حينذاك ، استوى ادريس واقفاً ، وسعى ان يبدل مجرى الحديث :

– سيجارة يا عظيم?

والتفت الى عزيزة:

– اظن ان السيدة عزيزة تفضل سيجارة اميريكية ..

– شكراً يا سيدي ، أنا لا ادخن .

*

أشعل ادريس سيجارة ، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وهـــو يتحدث بصوت جلي ، عن الاخلاق والقيم ، وعن السلوك ... وانتقل

به الحديث الى ما يقع فيه بعض الشبان من موبقات وتهور... كان عظيم قـــد تململ في كرسيه ، مهموماً شاردا ، وشفتاه تمتعـان طرف السيجارة بنهم وشره . من العسير ان نعلم إذا كان عظيم يصغي لما ينطق به ادريس ، ام يلاحق خيالاته ويتيه وراء شروده ، ولم يفت ادريس ان يلاحظ مدى ما يتخبط فيه من فتور وتشتت الشخصية. وبعد ان مضغ آخر كلمات حديثه ، اردف ، متوجهاً إلى عظيم :

ـ وعدتنا ، منذ لحظات ، أن تحدثنا عن المثقفين .. هيـا ، فنحن آذان صاغية .. ولكن ، عليك ان تلزم الجدية وتبتعد عـــن التعميم والمبالغة . أليس كذلك يا سيدتي ؟

تريثت عزيزة في الجـــواب ، ثم رفعت رأسها، والاحمرار يصبـــغ خديها ، وقالت ، وهي لم تجمع بعد كامل انتباهها :

ـ نعم .. ماذا قلتم يا سيدي ؟.. إيه من هو المثقف الحقيقي !..

نهض عظيم وجمع رماد سيجارته عن الارض، ورمى بها في المنفضة، ثم أخذ يتحدث :

ـ المثقف الحقيقي، في نظري، هو من يعي انه يجب عليه ان يقوم بتعميم الثقافة ونشرها . ورسالة الثقافة الاولى هي مساعدة بني الانسان، على السواء، كي يتفهموا ذواتهم ، ويكتشفوا ما فيهم من طاقات وقوى . وبذلك يساهم

المثقفون في بنـــاء صرح التفاهم بين الشعوب والتواجد السلمي البناء.

فواجب المثقف، إذن، خطير! إنه العامل الاساسي على تطوير عقلية ومفاهيم مواطنيه، ليدفع بهم في اجواء حياة افضل، ومستقبل زاهر بسام، في كل المجالات.

توقف عظيم عن الكلام، كما توقف عن المشي، واحنى بصره نحو الارض، لتجتمع افكاره وليتأمل. وبعد فترة، رفع رأسه، وتوجه نحو عزيزة، بعبارات تسابقت فيها حركات اليدين مع الالفاظ:

ـ ان ما ابديته هو ايضاً رأي السيدة عزيزة. فلقد سبق لها ان حدثتنا عنه. إن حب الوطن وحب الانسانية سيبقيان حباً افلاطونياً، والثقافة العالية خيالات وأحلامـاً، إذا لم يصر المثقف خميرة نظيفة في المجتمع، وشعوراً ناقداً حياً، يماشي التاريخ.

*

بدأ عظيم وعزيزة يختلسان النظرات، امـــا ادريس فيحس بتوتر داخلي يذهب به، في كل جهة، حتى انه لم يكن يعير حديث عظيم إلا نصف انتباه. لم يعد الموضوع يعجبه:

ـ يتأكد لي ان ذلاقة اللسان قد غزرت لديك. إنها صفة اعرفها فيك من قبل. ولكنك اليوم فقت المعتاد.. أنسيت ان رجال السلك

الدبلوماسي يبخلون جداً بالكلام ؟

ـــ قلت لك انني لم اعد من الدبلوماسيين ، منذ امس !..

ـــ وهل تظن ان في تركك السلك الدبلوماسي تبريراً لما تصبه من قنابل على المثقفين ؟ :.

فأجاب عظيم وهو اشد حماسه :

ـــ لم اتناول بانتقادي إلا المثقفين الزائفين . لا تفزع ! فأنت لست في عدادهم !.. (مال الى عزيزة وتابع) : اتوافقين ادريس يا سيدتي ؟ احقاً كنت قاسياً؟

ترددت عزيزة ، بعض الوقت ، قبل ان تطرح وجهة نظرها انها . وإن كانت تقاسم رأي عظيم عن مفهوم الثقافة ودور المثقفين ، لا تود ان تصرح بذلك حتى لا يؤول رأيها تأييداً لعظيم ، وتأييداً لما يرمز اليه ولما ينويه . ولكن من الادب ان تتكلم ، الثقافة المكافحة تفرض على غريزتها ان تتكلم ، دفاعاً عن كل رأي صائب ، فاجهدت نفسها على الكلام :

ـــ يظهر لي ان تعريف السيد عظيم للثقافة .. تعريف .. قويم ..

أخذت عزيزة تبحث عن الكلمات ، متحرية الاختيار ، كطالبة امام لجنة الامتحان . ولكنها ، بقدر ما تسترسل في الحديث ، بقدر ما

تستعيد الثقة بالنفس فتنتفخ لهجتها قوة وإفصاحاً :

ـــ ان اصحاب الثقافة المزورة ، كما قال السيد عظيم يترعرعون عندنا ، ويا للاسف ! وبكثرة مدهشة ، بينما نلمس قلة اصحاب الثقافة الصحيحة البناءة ، الذين غادروا ابراج الانزواء وعلب القطن ، فتفهموا قواهم وجندوها للصالح العام. فلا طائل تحت المعرفة اذا لم تتركز على اسس العلم الصحيح وعلى البذل . فكل معرفة حقة تدفع حتما الى دنيا العمل المثمر .

ابتسمت ، ثم تابعت :

ـــ اعتذر اليكما ، ان حدت عن الصواب . فليس لمن لا تحمل إلا البكالوريا ، ان تناقش الدكاترة والمهندسين :

فقاطعها ادريس :

ـــ لا ! لا ! حاشا ! انك وسيعة الاطلاع .

واضاف عظيم :

ـــ لافض فوك ! حبذا لو كانت كل المغربيات، او على الاقل جلهن، قد بلغن مستوى السيدة عزيزة ، تفتحاً وثقافة ! (ابتسم عظيم ، ابتسامة عريضة، وقال وهو يتوجه نحو عزيزة):

ـــ لا عجب ان كنت لاتجدين اي حرج في اجواء الفكر والمعرفة .
إني اعلم عنك الشيء الكثير. فبعد ثانوية « الليمون » حيث كنت تلميذة نجيبة ، أخذت البكالوريا بقسميها ، مع امتياز حسن ! ولكن الفضل الاكبر، في وساعة ثقافتك وأصالة الرأي، يرجع، بلا شك ، إلى مواظبتك على المطالعات بالخزانة العامة بالرباط ، وخصوصاً في السنوات التي قضيتها في الكفاح النقابي . ألم تكوني عضواً مرموقاً من مسيري النقابات الوطنية؟ فالغالب انك اكتسبت تجاربك الغنية من تلك الفترة . . الست على صواب فيما رويت ؟

تزاحمت انفاس عزيزة ، وتقطعت كأنها محاصرة في غرفة خالية من الهواء الطلق ، وعلا وجهها اصفرار ، فأحست بدمها ينزف ويتجمد ، وحلقها يجف . ولكن ، لا يحق لها ان تضعف امام جرأة عظيم ، عليها أن تواجه الموقف برباطة جأش :

ـــ لقد أتعبتم نفسكم ، يا سيدي ، واضعتم وقتكم الثمين في البحث عن تاريخ حياتي الدراسية والنقابية ، إني مجرد عاملة متواضعة لا استحق كل هذا الاكتراث !

*

كانت نظراتها الى ادريس مزيجاً من الاستعطاف والعتاب ، كأنها

ترجو حداً لتحدث عظيم عنها ، لأنه حديث يضايقها . وكان ادريس، بدوره ، قد مل الموقف : ماذا يريد عظيم من كل هذا الكلام ؟ من الصعب عليه ان يلومه ، فعظيم لم يخرج عن إطار اللياقة ، ثم انه شاب.. وعزيزة جميلة، ومثقفة ، وذكية .. ولها حضور حلو جد مريح .. كل هذا صحيح ، ولكن ، ألا يجب على عظيم التمسك بمبادىء الاخلاق والحشمة بحضرة ابن عمه الاكبر ؟ فليحاول ادريس ان يغير الجو :

ـــ أبوا ! يا عظيم ! فمن الهندسة ، انتقلت الى الديبلوماسية ،وها انت تصبح اليوم شرطياً ينقب عن احوال الناس واخبارهم !

ـــ أنت ضال في زعمك ، يا استاذي الجليل ! انا لا اسبر اغوار ماضي كل الناس، وانما أهتم بسيدة تستحق مثل هذا الاعتناء ، هذا كل ما كان (وبعد ان غمز عزيزة ، اضاف) :

ـــ اياك ان تحسد السيدة ! فلا تنس انني اعلم الكثير عن ماضيك ، انت ايضاً . بل اعرف عنك اضعاف ما اعرف عنها !..

ـــ ما زلت كما عهدتك ! (ثم نحو عزيزة) : ألم اقل لك،ياسيدتي، إنه لجوج يتعشق النكت ؟

*

ضاقت عزيزة وسئمت ، فخفضت رأسها ترمق الارض في صمت .

وفجأة تعالى من الداخل صراخ الطفل ، فطارت جهة الباب ، نحو الطفل ، واستأذنت ادريس :

ـــ ارجو ان تسمحوا لي ، يا سيدي ، بالذهاب لأطمئن على الطفل .

وهرولت وهي تخاطب عظيم :

ـــ وداعاً يا سيدي !

فرد عظيم ، في ذهول وارتباك :

ـــ الى اللقاء ، يا سيدتي ! الى اللقاء في القريب ، ان شاء الله!

وقبل ان يغلق الباب خلفها ، رجاها ادريس ان تطلب من دادا احضار الشاي .

*

بمجرد ما ودعت عزيزة الغرفة تنفست الصعداء ...

القسم الثاني

الفصل الاول

اشتدت حرارة الشمس فأشحنت جو المكتبة بالثقل،وافعمت ادريس فتوراً و كسلا . اخذ الظمأ يسري في عروق الارض . لكن من حسن بلدة الرباط ، ان البحر لا يتركها وجهاً لوجه مع قساوة الصيف. يتدخل المحيط الاطلسي ، فيوقظ ، بين الفينة والفينة ، نفحات من نسيم ناعم . احس ادريس بريح بحري يقوم بزيارة دارته ، ويداعب اغصان شجرة موز ساقتها الاقدار حتى حديقة ادريس حيث تتبوأ مكان الصدارة ، وحيدة ، دون خليل او قريب . و كأن الريح ، اذ يداعبها ، يحاول ان يخفف ما بها من ألم المنفى والوحشة : كانت اغصانها الطويلة العريضة، وهي تتهادى، تتلاعب بالظلال على نافذة مكتب ادريس،وتمتد اهتزازاتها تعكس الضوء، مرة مكسراً واخرى مرقعاً ، بين مدوجزر، كالحيرة التي يعانيها ادريس في هذه الفترة . كانت حضرته تمعن النظر في

رقصات اغصان شجرة الموز كأنه لم ير ذلك قط . يلاحظ ان الريح تعانق الاغصان ، ولكنه لا يرى الريح مباشرة . تلتقي الاغصان ، في لمسانها للريح ، عند باب الغرفة الداخلي ، بظـــل يتسحب ويماع ويستطيل . تغلغل الخدر في حنايا ادريس ، خدر الجو اللافح المستعر ، وخدر التوتر الذي تحلب من حديث ابن عمه عظيم . اجل ، كيف تجاسر عظيم عـلى بث النجوى و كشف اللوعة في حضرته ، هو البروفسور ... المحترم الوقور ..؟

اما عظيم فقد وقف متكئاً على رف المكتبة ، بعد ان فك ربطة عنقه ، وفتح القميص عـــلى صدره ، يتصفح كتاباً . ثم اغلق الكتاب ورمى به على الطاولة وخاطب ادريس :

ـ أواه مـــا اشد حرارة هذا النهار الذي طال وامتد مثل رمال السهوب .

وسكت عظيم كمن يتوقع جواباً من ادريس ، ولكن البروفسور اعتصم بالصمت وراح يتفحص ابن عمه وهو يتميز حنقاً .

وبعد برهة ، عاود عظيم الكرة عله ينتزع من ادريس جواباً او يفاتحه الحديث . وللمرة الثانيـة لزم ادريس الصمت . اذ ذاك ثار ثائر عظيم ، وقال بلهجة من يستجدي جواباً ، او حتى اشارة :

– ألا تزعجك الحرارة يا ادريس ؟ اما انا فقد ضاقت بي الانفاس ..
أوف ! ما اقسى الحر هـذا اليوم ، انـه لهيب ، ألا توافقني يا ادريس ؟

قرر ادريس ، اخيراً ، ان يخرج من صمته ، فتدفقت الكلمات من شفتيه تطفح اشمئزازاً وتقززاً :

– هل فقدت رشدك يا عظيم ؟ كيف استبحت لنفسك مغازلة كاتبتي بحضوري ، وفي مكتبي بالذات ؟ ماذا اصابك ؟ اما زلت مراهقاً ؟ ان هذا لا يليق بمن هو في سنك !

– خل عنك الوعظ والارشاد ! يا ادريس . لا يفعل ما فعلت إلا من استقام له الرأي وبلغ نضج الشخصية . عليك ان تنتهج سبل العقل والفطنة ليتسنى لك ان تتحسس ما انا فيه من اشواق ... اني اغـلي حباً .

– لست معتوهاً لأصدق بأنك وقعت في حب عزيزة بهذه السرعة ! أتؤمن انت بصدمة النظرة الاولى ؟

– ولم لا ؟ ان حياة القلوب اسرار في اسرار ...

احنى عظيم رأسه ، وتنهد بعمق ، وتململ في مكانه ، ثم قـال وهو يتعمد الابتسام :

– الواقع اني لا اؤمن بمفعول النظرة الاولى !

فتح ادريس فمه كمن يريد اخراج كلام استعصى عليه ، ويداه تسألان في حركة اكتست بالبلاهة . لم يكن يتوقع تصريح عظيم الاخير ! انه يخالف تصريحاته السابقة !

– ما هذه التناقضات يا عظيم ؟ اني حرت في امرك ومنطقك .

– على رسلك ! استمع إلي . منذ سنوات ، قد تعرفت على عزيزة . ومنذ ذلك العهد وانا شغوف بها ، بل قد تقدم لي ان لاحقتها عاني اكون معها صداقة ، لأننا كنا نخالط معاً نفس المكتبات العامة والنوادي الثقافية . ولا بد من الاعتراف بأن رزانتها ، وصفاء عينيها ، وحشمة هيئتها ، كلها تنتزع احترام واجلال الشبان ، حتى الماجنين منهم . ولا اخفي عنك انني لاحقت عزيزة حتى الآن تحفزني إلى ذلك تسلية ومتعة . اما اليوم ، فقد اختلف الهدف : اريد ان اتزوجها .

*

تتابعت كلمات عظيم تصك سمع ادريس ، كل واحدة تترك اثراً فيه كأنها حجارات يرجم بها . وقد شعر عظيم بما يعانيه ابن عمه ، فطفق يفصح في كلامه ويعطي لكل حرف حظه الوافر من النطق ، تأكيداً لما يقول ، وتقريعاً لما يمكن ان يخامر ادريس من شك .

نعم ، اني اريد ان اتزوجها ، ان تكون زوجتي وان اكون زوجها .

بعد يومين من رجوعي الى الرباط ، لمحتها في الحديقة العمومية ، فسحرتني من جديد ، ولكن اللوعة كانت اعمق ، هذه المرة . اخذت بلبي هيأتها ، وأسرني بريق جمالها . تسمرت في مكاني اتلجلج على انهيار القوى وخفقات الفؤاد . اقتفيت آثارها عن قرب ، منذ ذلك اليوم ، أتلقط لأخبارها فالشيء الوحيد الذي كان يزعجني ويقض مضجعي هو ذلك الطفل الذي يرافقها اينما ذهبت وحيثما حلت . فرحت أستفسر عـــن امره ، ولم ألق جواباً شافياً . . . وفي هــــذا الصباح ، صممت أن أراقب كل خطوة تخطوها .

اشار اليه ادريس بالسكوت . ثم بعـــد قليل ، افتعل الابتسام وقال :

— ويلك ؟ اكاد لا اصدق ما اسمع ! اين هي عزتك وكرامتك ؟ اين صفاء محتدك ونبل اصلك ؟ . . . ولكن لا بأس ، تابع حديثـك المخزي !

بحث عظيم عن علبة السجائر في جيبه بانفعال . وما ان عثر عليـــها وفتحها حتى اغلقها واعادها الى مكانها الاول ، وهو يشير ويحرك يديـه محاولا ان يسترعي انتباه ادريس :

مررت امام بيتها ، للمرة الثالثة ، او الرابعة ، عندما رأيتها تخرج ، في هذا الصباح ، تدفع امامها عربة الطفل . وسارت بخطى حثيثة متلاحقة . فتبعتها في خفاء ، إلى ان رأيتها تلج هذا البيت من باب الحديقة . حرت في امري ، وفي امرها . ظننتها من رواد هذا البيت . فزوجتك في سفر قد يطول . لا تؤاخذني على صراحتي ! ان الحب قد اعمى بصيرتي ، فذهبت في الظنون كل مذهب ، رغم اعتقادي الرسيخ ان بعض الظن اثم . وتأكد لي الآن ان عزيزة ليست خليلتك وانك لست والد الطفل . آه ! احس بأن عبئاً ثقيلا قد انزاح عن منكبي . أنى لك يا ادريس ان تسبر اغوار نفسي ! ما أندى الدموع في عيني ، الآن ، دموع الغبطة والفرح .

— واي طريق انتهجت في استطلاعاتك الشيطانية ؟

اني جد خجول مما حصل . نعم ، لا أدري كيف تجرأت لا تعاتبني ، يا ادريس ! تفهم موقفي ، أرجوك !

— وهل من تفهم اكثر من كوني انصت الى حماقاتك ؟ غريب ! .. استرسل .

الحيرة بادية على عظيم ، انه يوشك ان ينهار انفعالا . اين ذلاقة لسانه ؟ انه يعاني صراعاً داخلياً عنيفاً : يريد ان يقول شيئاً ، ولكن

قوى نفسانية تعاكسه . فليحاول ان يستعيد الجرأة المعتادة ! ان ما سيقول مفجع لادريس ، ولكن يجب ان يقوله :

– أرجوك يا عزيزي ادريس ألا تؤاخذني . ها هي القصة :

– قرأت امس ، في جريدة صباحية ، خبر اختطاف طفل من مستشفى ابن سينا . ولما لمحت عزيزة تدخل الى هنا ، عوت في داخلي قوى الشر ، فذهبت الى اقرب مقهى وتلفنت للشرطة ، دون ان افصح عن اسمي ، واكدت ان امرأة دخلت الى هذا البيت ، من باب سري ، وهي تحاول ان تخفي طفلا ، ربما كان مخطوفاً .

فغر ادريس فاه ، ووسع ما بين عينيه . وتابع عظيم :

-- كنت على ثقة من مخاتلتي ، لأن عزيزة لم تسرق طفلا . ولكني لم اجد وسيلة لاماطة اللثام عن علاقتك بها . انه جنون ما فعلته ، ولكن الحب والضرم اللاعـــج يذهبان بالانسان الى اسفل دركات الحمق واعتم السوء .

– ما افظعك ! ما اقل ذوقك ، لقد ارغمتني على ان اقضي اصعب واتعس وقت في حياتي مع ثلاثة من الشرطيين .. أف لك ! مـا اثقل ظلك !

– انك على حق يا ادريس . لقـد ظلمتك ، فأحزنتك وازعجتك .

ولكني كنت على ثقة من ان القضية ستمر دونما اي مساس بك . اما بالنسبة لي فقد كنت مضطراً ان افعل كل شيء لأصل الى معرفة هوية الطفل ونوع العلاقة التي تربطك بعزيزة . اني عاشق ، يا اخي ، وللعشاق منطقهم الخاص ! لولا تدخل الشرطة لما اقتربت من الواقع ، ولما خففت عن خاطري ما كان يخيم عليه من اوهام ثقيلة مزعجة . الآن اشعر بشيء من الراحة .

اخذ عظيم يفرك مؤخر ربطة عنقه بيد ، واليد الاخرى تحبك خصلة الشعر الممتدة على جبينه ، وكأنه بتلك الحركات اللاإرادية ، يصرف المد العصبي الذي يفعل في مجموع كيانه . اما ادريس فقد انسلخ عن الكلام وعن الحركات ،ليغرق في انفعالات صامتة جامدة مجمدة. وفجأة، سكنت يدا عظيم ، وبدأت تنتفخ الجمل في شدقيه :

ـ حالما لمحت الشرطيين يخرجون من هنا ، قفزت الى سيارتي « المرسيدس » ، وسبقتهم الى مكتب صديقي رئيس قسم الشرطة . هناك استطعت ان احيط بالموضوع واعرف ما حصل . ولله الحمد ، فلقد هبت الرياح كما تشتهي السفن .

فصاح ادريس ، بحنق وعنف :

ـ انك مجرم ! هذه سادية ! او على الاقل جنون ! ألا تدري ما تفعل ؟

*

انتشرت حول عظيم احزان عواض سدت عليه منافذ انفاسه، وعصره ألم حز قلبه . دنا من ادريس ورجاه بصوت ابح مخنوق، وعيناه تستجديان الصفح والاعتذار :

ـ ارجوك ان تشفق من حالي ! لا شك انك جربت جنون الحب . فلطالما تحول الحب إلى عالم العمياء . لقد فعلت ما فعلت ، مكرهاً . وبالرغم عن كل ما حدث ، لم يتمكن الشرطيون من معرفة هوية الطفل !

ـ انا ايضاً لا اعرف هوية الطفل ، وهل في ذلك ما يمنع الارض من الدوران !

ـ ولكني اعتمدت سبلا غير هذه اوصلتني الى كشف بعض ما يتغلف به ذلك الطفل من اسرار .

ـ كيف ذلك ؟ لا شك ان ساديتك افقدتك الاتزان ! لن اغبطك على هذه الجرأة الوقحة . ولن اباركك لك فيها !

ـ انتظرت منك كل شيء إلا ان تشتمني في كرامتي واتزاني العقلي،

وان تجعل حبي الطاهر موضوع تساؤلات مقيتة . ولكن لا حرج عليك، فسأتحمل منك كل ذلك واتغاضى عنه .

٭

سكت عظيم وهو ينظر الى رجـليه كأنه يتفحص حـذاءه ورأسه يهتز ، كمن يتابع حواراً باطنياً . ثم رفع رأسه ، ورمى بنظرة حامية الى ادريس ، وبعد نحنحات متتابعة مضطربة ، قال :

ـ ادريس ! ارجوك ان تصغي لما سأطلبه منك، انه طلب من الاهمية بمكان . اريد منك ان تقول لعزيزة أني احبها ، نعم ، أني ا ـ حـ ـ ب ـ ها . ا ـ حـ ـ ب ـ ها واريد ان اتزوجها ! . اقسم لك بالله العظيم اني اقول الحق، واني متمتع بكامل قواي العقلية وصفاء افكاري . سأترك لها ان تحدد موعد الزواج ، حسب رغبتها . ومـن البديهي انني اكل الى فطنتك وذكائك مهمة نجاحي في مسعاي وتحقيق امنيتي . يتحتم عليك ان تقنعها بصدق نيتي ومدى رزانتي . وخصوصاً عليك ان تؤكد لها انني من الذين لا يقيمون اي وزن للطبقية بين البشر .

صده ادريس بجزم وقوة :

ـ لن يكون ذلك ابـداً ! مستحيل ! نعم ، مستحيل ان يربطكما الزواج .

ـ ولماذا ، ادامك الله وابقاك ! يا نبي الشؤم ؟

فأجاب ادريس بهدوء مفتعل :

ـ اصغ إلي جيداً . الزواج امر بالغ الخطورة ، فادح المسؤولية .انه عقد ورباط متين يدوم طول العمر ! ايروقك ان تربط مصيرك،وحياتك، ومستقبلك بامرأة ليست إلا مجرد سكرتيرة بسيطة ، تحمل على ذراعيها طفـــلا لا يعرف اصله من فصله ؟ انت شاب ينحدر من اسرة بعيدة الجذور في دنيا الشرف والجاه . مهندس ، دبلوماسي ، ابوك من اغنى تجار المغرب !

ـ اسكت ايها الرجعي ، اهذا هو منطق المثقف؟اهذه هي انسانيتك وآراؤك في المواطنين ؟

اقترب عظيم من ادريس ورنا اليه بسخر ، فبدأ ادريس يتهرب من نظرات الاحتقار . لقد فوجىء سيادته برد فعل بن عمه ، لم يكن يتوقع ان يرى الغضب يتصرف بسلوك « عظيم » الى هذا الحـــد من الانفجار والقوة . سكت الاثنان ، فلا تسمع إلا انفـاس ادريس اللاهثة تعوي لخفقات قلب عظيم الثائرة،وعيناه تتأججان غضباً . واخيراً ارتجفت شفتاه ، فقال :

ـ قل لي بربك ، يا حضرة البروفسور ، كيف جمع والدك ثروتـــه الضخمة ؟ وعمك المحترم ، والدي ، من اين تجمع له المال الرسيل ؟ هل

نسيت ؟ ألا تذكر زمن الحرب ؟ . أغاب عن بالك السوق السوداء ؟
حدثنا عن الاسرة النبيلة ، اسرتك ، اسرتي ، اسرتنا المجيدة ! ياله من مجد ! مجد استغلال الابرياء والمساكين ، ابان السوق السوداء ! اذكرك لأن الذكرى تنفع المؤمنين . سكت عظيم ، وبقيت نظراته تسأل ، معاتبة ادريس . ولكن ادريس لم ينبس بكلمة ، ولم يحرك ساكناً . فهرول عظيم الى الباب ، فأوصده ، واخفى المفتاح في جيبه ، ثم رجع بخطوات متثاقلة ، الى حيث كان اولا ، وخفت التماع عينيه ، وبهت لون الدم في وجنتيه ، وتدفقت الكلمات سريعة ، حاسمة ، متتالية ، تصفع وجه ادريس :

ـ عائلتنا ، يا سيدي البروفسور ، انقادت لها الثروة تجر وراءها الزيف ورائحة عرق ودم الفقراء والكادحين . فباسم هذه الاسرة، وباسم الفئة التي تنتمي اليها تلك الاسرة ، تقيء الاهانة على عزيزة وتحاول ان تقنعني بأنها لا تستحق ان تقاسم حياة ابن عمك ، النبيل ابن النبيل ! لو كانت عزيزة من اسرة لها فلوس ، فرنكات ، دراهم . ولو فلوس الحرام، ثروة مغتصبة ، لانفتقت مائة لسان ولسان للثناء عليها ، ولحبذتم الزواج وباركتم وكبرتم ، شاكرين الله على نعمته . فتصيح انت : «انها محتشمة عفيفة نعم الزوجة » ، ويضيف ابي « ما اجملها ! سأكون فخوراً بأن

اعدها من بناتي !»، ويردد عمى، أبوك المحترم: «الجمال والمال، أليس هذاهو الكمال؟» . فتجيب امي وامك واخواتنا وعماتنا وخالاتنا، بنعم، ويرفعن صوتهن يزغردن: "يويو! يويويو! vous m'embêtez avec la famille" هل سمعت ؟ عائلتنا حديثة النعمة!. تكبلها قبائح الفقراء الذين اغتنوا فجأة .

اخذ عظيم يذرع الغرفة ، ثم توقف امام ادريس وصرخ في وجهه ، بصوت يدوي انفعالا وغضباً :

ـ لا شك انك تخطيت ، بأوهامك كل معطيات الثقافة، ودست كل رفيع جميل من الاخلاق الحميدة . ان ما يؤسفني هو انك لا تبذل اي جهد في سبيل تحطيم ما احطت به ذاتك من ستائر الجهل الصفيقة ، وما حشوت به دماغك من أخطاء وغباوات في نظرتك الى الناس والى نفسك. لماذا تهرق حياتك وقواك ، على مذبح المتناقضات ، حيث لا هواء ، ولا اضواء ، ولا تعزيات ؟.

*

مسح عظيم العرق عن وجهه ، واستسلم لدنيا الهواجس والخيالات بينما جحظ ادريس عينيه ولفه شرود، فبدا كأنه لا يصغي الا لخفقات قلبه المتتابعة. تزاحمت الكلمات في فم عظيم، ولم يطق بلعها ، فتدفقت بالرغم عنه حادة :

ـ غنى عائلتنا المحترمة !.. النبيلة !.. شرف يبنى على رقاب الآخرين واستنزاف كرامتهم وقواهم !.. اهنا مصدر فخرك ومنطق اعتزازك؟.. قل لي ، ما هي الافادة التي جناها والدنا من اموالها ؟ اليس عند الاثنين ثمان فتيات لا تستطيع واحدة منهن ان تقرأ او تكتب ؟!.. وانت ، بماذا تتهم عزيزة ، يا ترى ؟ اتحتقر فيها العلم والجمال والشباب والعفة ! .. ثق ، يا حضرة البروفسور ، ان عزيزة ستضفي الشرف الاثيل الحقيقي على عائلتك .. انها لا تحمل مثل شهاداتك ، او شهاداتي الجامعية، ولكن ما ابعدنا نحن الاثنين عن صدق مبادئها ورجاحة تفكيرها !.. بل ما أحقرنا بالنسبة لاخلاقها العملية ، وآرائها التي لا تخجل من الحقيقة العارية !.

ـ هدىء من روعك يا عزيزي ، فأنت ، بدون شك ، لم تفهم ما اردت من قولي .

فرد عظيم ، بثقة وحزم :

ـ لا تراوغ ! تأكد انك امام امرين ، لا ثالث لهما فاما ان تكون عشيقاً لعزيزة تغتنم غياب زوجتك لتراودها عن نفسها وتقضي بقربها وقتاً ماتعاً، واما ان تكون معتوهاً مسكيناً كبلت عقلك اغلال تفاوت الطبقات !. ولكن كل ذلك وسواه لا يهمني . فسوف اعرض عليك

الآن سبيلا تستطيع بواسطتها ان تبقى على اجمل تقاليد عائلتنا المحترمة !. وجدودنا الافذاذ الميامين !..

قاطعه ادريس باحتجاج :

ـ الاجدر بك ، يا عظيم ، ان تحتفظ بنطفة من الاحترام والتقدير لمن جعلوا منك ما انت عليه الآن !. ارى انك قد تجاوزت كل حد ، وانتهكت كل حرمة .

ـ استمع الي ، بكامل الانتباه ، حتى انتهي مما اريد ان اصرح به .

جلس عظيم على طرف الطاولة وقال :

ـ عندي العلم اليقين انك تسعى جاهداً لتحصل على وظيفة عالية جداً . ومن الاكيد ان مؤهلاتك لا تقبل الشك ابداً . ولكن قد تحتاج الى من يدعمك ويتوسط لك .. ثم ما اظنك تجهل مدى النفوذ الذي اتمتع به لدى من يهمهم الامر ، من بعيد أو من قريب .. ومن ناحية اخرى ، لاحظت أن عزيزة تثق بك ، كل الوثوق ، وتكن لك الاحترام . فما رأيك لو حدثتها انت بأمري ، وشرحت لها اهدافي ؟.

رد عنه ادريس بغيظ وحنق :

ـ أفهمتك أنني لن اقوم بتمثيل دور كهذا ! انه لا يليق بمركزي وعائلتي ! ولا اكتمك انني سأبذل ما وسعني من جهد لامنع حدوث

ذلك الزواج . من المحال ان ارضى بأن يربط احد اقربائي حياته ومستقبله بعاملة حقيرة وموظفة مغمورة. حتى ولو كان لهاذ كاء ومواهب. مستحيل! مستحيل!. هل قل المـــاء فجف في عينيك يا عظيم ؟. لماذا تريدني سلماً تصعد عليه لبلوغ اهدافك ومآربك ؟. خصوصاً وهي تعاكس مبادئي ؟

ـ القضية في غاية البساطة . انا لا اثق من انني استطيــع الاحتفاظ بتوازني ، في حضرتها . والذي اخافه، على الخصوص ، هو .. ان اضعف اذا انكرت علي صدق مسعاي وطهارة حبي . لن اجـــد ، حينذاك ، الكلمات المناسبة . فكل مـــا كان لي من قوى هدرتها في سبيل محاربة المتناقضات العائلية ، واكتساب الصالح من المباديء والمثل .

ـ يا للعجب ! أإلى هذا الحد اصبحت تشك في قدراتك وقواك ؟. اكاد لا اصدق سمعي .

ـ لا جرم ان القدرات التي كانت لي من قبل مصدرها العائلة ومـا تمثله من اعتزاز وشموخ . اما الآن ، وقد خلعت عني ذلك الرداء السمل المتهرىء، فقـــد اصبحت خجولا . اليس كذلك يا حضرة البروفسور؟.

٭

اذ ذاك نفذ صبر ادريس وساءه ما في اقوال عظيم من تهكم وهجاء سليط للاسرة . وكرر له التأكيد انه لن يتدخل ابداً في قضية زواجه من عزيزة . فتلقى عظيم هذا التصريح بسكوت بارد ، ومرارة وخيبة.

ثم استوى واقفاً،وساربضع خطوات قبل ان يجابه ادريس ويشزره قائلا:

ـ سأبعث الآن في وجهك آخر نبلة في جعبتي . تحقق ان كل كلمة انطق بها تصدر عن روية ، وبصيرة . قد اعترفت ، منذ قليل ، انك لا تعلم من شأن الطفل شيئاً . ولكني استطيع ان اصارحك بما يذهلك ويدينك .

ـ صه ، ايها الابله الرعديد !.. ليست لي اية صلة او معرفة بذلك الطفل !.

ـ ارى ان البروفسور المحترم ، سليل العائلة الموقرة،قد فقد زمام رشده ولم يعد يضبط اعصابه ! الم اقل إني سأصارحك بما يشكل لك خطراً فادحاً ؟

ـ انك تهذي وتهرف .. فضميري صاف ، هادىء .

ـ أيدور في خلدك ان عظيم ، ابن عمك واخاك الاصغر ، يريد لك السوء والشر .

ـ بما انك عزيز علي ، تراني انصحك حتى تبتعد عن التهور ومزالق الخطر التي ستزج بنفسك في دركها المظلم العاتم . انك عليم بما يسعى اليه والدك من خير لك .. ومن وقت زهيد حضر الى هنا ، واستشارني في امر يعنيك ، ويتعلق بمستقبلك .

ـ لا يخفى علي انك مرشد العائلة الوحيد ومفتيها في امور كهذه. مع الاسف الشديد ، انك لم تدرك حتى هذه اللحظة ، ان المثقف ، في نظر والدك وعمك ، سلم يصعدون عليها للوصول الى تتميم رغباتهم . انا اعلم ان والدي يريدك ان تقنعني لاخوض دنيا المال والتجارة الى جانبه . لا ! والف مرة لا ! ثم اني اعلم انه يحاول ان يزوجني فتاة في الخامسة او السادسة عشرة من سنها !. انا اكبر منها على الاقل بعشر سنوات .

ـ واي ضير في ذلك ؟

فأجاب عظيم ، بسخرية واحتقار :

ـ حرام ان اكلف نفس الاجابة على سؤالك .. انت رجل مسكين ، يا ادريس . سأحول دون ارادة والدي ، بكل ما اوتيت من عزم وقوة . فالفتاة ما زالت في طور الرضاعة او الفطام . فبدل الزواج ، يجب ان تعطي ، تلك الفتاة ، مصاصة ! ولا تنس انها غبية جهولة ، نظير اخواتك وقريباتك كلهن . المهم اني انا الذي سأتزوجها ، وليس والدي! ولا بد لتلك العقلية العتيقة ، وذلك المنطق الاخرق من تحطيم حاسم ، عاجل .. ان رجال الاعمال والتجار ينظرون الى الحياة بعين الربح والدخل ، بذهنية العرض والطلب ، ضاربين بكل واجب عائلي عرض الحائط . ان السعي الى تكديس المال ، بكافة الطرق ، يعمي ابصارهم

عن مستلزمات واحتياجات اولادهم واسرتهم ومواطنيهم .

– ولكنك بموقفك، هـــذا المتصلب ، ستقطع كل صلة بينك وبين والدك. وأخاف ان يبقى الانفصام طويلا جدا.

– ذلك عندي سيان ! لن اتراجع ، قيـــد شعرة ، عما صممت لنفسي، ولو لجأت الى فصم كل العرى التي تربطني بالعائلة المحترمة !

– انك مقدم على امر لا يخلو من عواقب مفجعة ! لا تلعب بالنار، واتق الله في نفسك وفي ابويك وفي اسرتنا !

– لقد فكرت كثيراً ووزنت الامور اكثر من مرة.. اتريد ان تعلم الآن، لماذا لم اجب على الرسالتين التي بعثت بهما الي ؟

– كنت اترقب مرورك بالرباط لاسألك عن سبب سكوتك .

– عندي سؤال ؟

– ???

– هل تعرف ما حفز والدي الى اختيار تلك الفتاة دون سواها ؟

– لتوفرها على الشروط الضرورية للزواج بمهندس ودبلوماسي ينتمي الى اسرة ز..

قاطع عظيم بعنف :

– لا ! القضية سهلة واضحة . والد الفتاة شريك والدي في الاعمـال

التجارية !لقد حاول عمك المحترم ان يقنعني بوجهة نظره مرارا ولو وافقته حينذاك ، لكنت الآن والداً لطفل في سن الطفل الذي مـع عزيزة . فأنا لست ابا،ويالاسف !..

تأثر عظيم ،وترقرقت دمعات من عينيه، مسحها بمنديل اخرجـه من جيب السترة. فدنا ادريس منه،وقال له بلطف وعطف:

ـ لا،لا ،يا عظيم ! لا اريدك تبكي كالمرأة! ما سبب ذرف الدموع؟ عليك ان تحتفظ بدموعك للمصائب ! لا افهـم كيف ترفض الزواج من الفتاة التي اختارها لك والدك ،ثم يعصرك الاسى ويخنقك الندم اذ لا ولد لك ! .

*

دخلت (وردة) الخادمة لتحمل طبقاً عليه ابريق من الشاي و كأسان ، وضعته على الطاولة ورجعت لتحضر طبقاً ثانياً به حلوى (كعب الغزال). فعلت (وردة) كل ذلك وادريس وعظيم لا يعيرانها اي انتباه ، فكأنهما عنها في شرود . وقال عظيم :

ـ لست ابكي اذ لا ولد لي،ولكني ابكي مأساة بعض فـترات حياتي . انك تجهل ان الطفل الذي في حضانة عزيزة اوشك ان يكون ولداً لي انا ، قد كان من الممكن ان اكون انا اباه! ربما لا تفهم مااقصد.

هز ادريس رأسه من اليمين الى اليسار، مرتين، ليؤكد انه لم يفهم. واني له ان يفهم تلميحات غامضة ملتبسة. جعـــل عظيم جبينه في كفه اليمنى، واحنى بصره، واكتسحت الدموع حلقومه . اين رنات صوته الجوهري الغضوب؟ كل جسم عظيم يضطرب كأنه خرج من مسبح عـار ، في فصل الشتاء القارص. قد وضع البطل كل سلاح، واستسلم لحزن يلقيه من الداخل والخارج. مـــا اقرب استسلام الاعزاء من الذل! امام الاحزان العميقة، تساوي الاجيال والطبقات، وتسطو ريح الابهام على الكبرياء ، فلا تبقى الا قلوب جريحة مستغيثة، ونفوس يكلح فيها العبث، مع ظمإ الى حياة لا زيف فيها ولا اغترار. الألم يصحح الاوضاع، انه الجامع المشترك. بعـــد لحظات ثقيلة كئيبة ، رفع عظيم رأسه، ومسح عينيه ، وهو يحاول ان يستعيد قواه، ثم وجه سؤالا لادريس:

- ألم يحك لك ابي ، او احد اقاربنا ، عن مأساتي ؟ عـــن زواجي بملكة ؟.

- لم يقل لي احد شيئاً عن ذلك .

- حقاً لم يطلع على تلك المأساة الا افراد قلائل من الاسرة ، لان ضمير والدي غير مرتاح ... فالجميـع يعمل على نسيانهـا ، ان في حكايتها حزنا وخزيا وألما ... ولو أن الوقت يسمح للخصتها لك .

ـ من الاكيد ان الوقت لا يسمح الآن لان عزيزة ستأتي قريبا. لا بأس سأستمع اليك في الاسبوع المقبل.

ـ متى ؟

ـ في الغد ، لا مجال للاجتماع بك .. بعد غد يوم مليء بالعمل . اسمع . نجتمع يوم الاثنين القادم ، في تمام الساعة السابعة والنصف .

ما انهى ادريس حديثه حتى استشاط عظيم غيظاً ، فزعق في وجهه :

ـ يا لك من صخرة صماء!.. الى مثل هذا الحد يصل فتورك ولا مبالاتك،حيال مساعدتي؟ابن عمي ! اخي الاكبر! ومع ذلك يرفض التعرف على اكبر تجربة مأساتية عشتها، ومازلت احياها ! ما كنت اظنك تنساق مع قسوة القلب الى هذا القدر من الانانية المقيتة ! ما فائدة الثقافة اذا لم تكن تفهماً للآخرين ، وتعاطفاً مع الذين ينهشهم جحيمهم الداخلي ؟

ـ لا تهول الموقف!لماذا تتهم حبي واخلاصي ؟ سنتناول طعام العشاء معاً في هذا المساء وسوف تراني اصغي اليك بكل جوارحي

ـ ستصغي الي ، وسأصغي اليك ، انا بدوري . فبعد ان احكي لك قصتي ، يجب عليك ان تطلعني عما انتهيت اليه في سعيك لدى عزيزة . فلا تنس ان زواجي من عزيزة هو الهدف الاول والأهم لكل اهتماماتي.

– لا تخلط بين امرين متباينين ، متناقضين ، قلت لك اني سأستمع الى حكاية مأساتك ، بكل انتباه، ولن ابخـل عليك بالارشاد والنصح والعزاء،تحفزني الى ذلك رساخة الحب الاخوي الصادق . امـا قضية زواجك من عزيزة، فمن المجال ان اوافقك. لقد قلت لك رأيي فيهـا، ولن ابدله ابداً. لست من الذين يتلاعبون بالمبادىء، كخذروف في انامل ولد طائش .. اكرر القول ، للمرة العاشرة،بأن ذلك الزواج هو الجنون بعينه . نعم الجنون !.

– أنت اشد عناداً ، واوسع جهلا ، مـن رؤساء عائلتنا الشرفاء المحترمين . فمنذ الآن امنعك ان تتحدث مع والدي فيما يتعلق بمشروعي. أفهمت ؟ واياك ان تزرع الاشواك في طريقي .

– نعم! نعم ! ان السيد قد لبس ثوب التهديد والوعيد !.. الآن علمت مكافأتك لي على نصائحي واخلاصي !.. اهكذا تهدد من يريد لك السعادة ؟.

– هي !هي !هي !.. الارشادات !.. السعادة !.. الكرامـة !.. شرف العائلة!..بربك قل ما هي العائلة ومما تتركب؟ان هي الا اواصر خلقتها الطبيعة فربطت بها اشخاصاً عديدين ، يظن بعضهم ان له كل الحق في ان يحشر انفه في خصوصيات،واسرار ، ورغبات الآخرين! وما اكثر

ما يرحم البعض ذواتهم بينما يجشمون غيرهم حمل اشياء لا تطاق!.. مـــا العائلة الا تطفل ومراقبة يقوم بها احد الناس نحو غيره.. وعائلتي، انا اين هي يا ترى؟ انها، ولا شك، حيث اجد التناسب، والتفهم، والحرية، وحيث تعـــم وتسيطر التقاءات العقول وتناغم القلوب والاهــداف والمفاهيم.. عائلتي، اخيراً، حيث اجد الطموح الانساني المخلص، البناء الخير!.

*

ضاق ادريس مـــن غضبة عظيم، فراح يغمغم ويدمدم بكلمات وعبارات لم تفصح عنهما شفتاه، ثم، بعد تأمل، افصح بصوت فيه رنـة حنان مفتعلة:

- لا اسمح لك، ابداً، ان تتهم صدقي، واخلاصي!.. واذا كنت امحضك النصح، فثق بأن ما ارشدك اليه ينبـع من خبرة طويلة غنيـــة بالتجارب والمطالعات.

- اعرني انتباهك، بعض الوقت، يا ادريس، ولا تقطع علي مجرى الحديث. ربما كان ما ستسمعه خطيراً.

سكت عظيم، واخذ يسير ببطء، يفرك اصابعه وينظر الى الارض، كأنه يستعيد الوعي ليقبض على زمام فوضاه الداخلية. ثم وقف، ملتفتاً

الى ابن عمه :

ـ لا ادري هل تؤمن بما في الصحف . اما انا فقلما انظر الى ما فيها بعين الاعتبار . لكني.. استثني تلك الحزمة من الصحف التي حملتها معي الى هنا (ويشير بسبابة اليد اليمنى الى الرزمة التي كان قد وضعها على الطاولة). ان بداخلها شيئا ليس مكتوباً ، ومع ذلك يفرض علينا احترامه ، ان لغته لابلغ ، احياناً ، من كل ما في خزانتك الموقرة ! ذلك الشيء ، عزيز علي ، لانه رافقني طيلة ايام المقاومة ، من صيف ١٩٥٣ الى اوائل ١٩٥٥ !

ركض عظيم نحو رزمة الصحف ، وقطع رباطها ، واخرج منها مسدساً صغيراً .. وما ان وقع بصر ادريس على المسدس حتى فغر فاه دهشة وذهولا ، وتراجع الى الوراء قلقاً . وفيما يفعل ، اصطدم بطبق الشاي ، فانقلب الابريق والكأسان على الارض ، وزاغ نظره مذعوراً حتى اختلطت عليه الاشياء . وطفق يتأتىء :

ـ مجنون !.. م.. ج... نون !.. لا!لا! اياك ان تفعل !.

ـ لا تخف ! مسدس لا عيارات نارية فيه . الا انظر . (وادخل عظيم فوهة المسدس في فمه). لا مجال لخوفك . ومهما حدث ، لن تكون الطلقات من نصيبك .. ذلك محال . انا لست سفاكاً قاتلا ..ولكني قد

اضظر الى رصاصات ازرعها في صدري هذا . . فتكون بذلك نهاية شقائي وخيبتي . . وتنتهي الطرحة . « الله اكبر ! مات عظيم ! مسكين ! رزق الله اسرته الصبر . . » . وسيزيد معز ثاني في اذن ثالث : « الانتحار والعياذ بالله ، لا يصدر الا عن احمق او مجرم كافر . . عظيم من عائلة غنية ، اعني نبيلة ، وابوه كان يعطيه كل ما يشاء ، لا شك انه قد انتحر خوفاً مـــن فضيحة جرائم قد ارتكبها » . ولكن اسرتنا المحترمة ستتنفس الصعداء لأن « عظيم » سوف لا يكدر عليها الحياة بعد الآن ، مات ! مات !

*

كان ادريس منكمشاً على تصدعه الباطني ، منفياً في ذاته ، في ذات هي نفسها تائهة . الفاظ عظيم تنقر في وجدانه لاذعة . اخـــذ المسكين ينتفض تدريجياً بقوة ليقاوم الدوران ، واخيراً خاطب ابن عمه « الطائش » :

ـ كيـ . . ف تجـ . ر . . أ ان تفكر في امور كهذه ، ايها الابله هــل تنـ . . تـ . . حـ . . ر من اجل امرأة ؟ امر . . أة ؟

ـ ولماذا لا ؟ ففي سبيل الحب الشريف يهـــون كل شيء . . حتى الحياة .

ـ الديانات جميعها . . المبادىء . . والانظمة . . والشرائع كلهـا . . لا ادري ماذا اقول . . كل ما في الوجود . . يدين الانتحار ! . . ان

الانتحار منتهى الجبن والجنون .

ـ كل ما قلته اعرفه من قبل . ولكن الا تدين الديانات والشرائع السوق السوداء والسلطة المؤسسة على جبروت المال والمحسوبية والاقطاع؟ الا تمنع الانظمة العقلية والنقلية العائلات من جر الابناء والبنات الى الزواج كما تساق الماشية الى السوق او الى المجزرة ؟؟ لقد ضاقت نفسي بالزواج النفعي التجاري المادي الذي يدوس على ابسط معطيات الضمير والقلب !.. ماذا تفعلون بحرية البشر ؟

اسرع ادريس فوضع يده على فم عظيم قائلا ؟

ـ اخفض من صوتك قليلا ! لربما سمعت عزيزة ودادا الضجيج فظنتنا نتخاصم .

*

فشاع في الغرفة صمت رهيب قاس ، وتدفقت من النافذة موسيقى خفيتة طروب تنبعث مــــن قيثارة دغدتها انامل منفعلة . انصت عظيم للحن الحزين النغيم . وبعد ان مسح العرق عن وجهه بمنديله، اقترب من ادريس،وضمه الى صدره،راجياً منه الا يؤاخذه لما صدر عنه من افراط . انها انفعالات عنيفة لا يعرفها الا الصوفيون والمحبون الحقيقيون . القلق والحسرة يشفعان لعظيم لدى ابن عمه :

- اني اجتاز فترة صعبة قاسية . كل ما ارجوه لك ان لا تنتابك الآلام التي عانيتها، وما ازال اعانيها .

تطلع ادريس الى عظيم، ورنا اليه في صمت واشفاق ، واخيراً قال:

- اجلس يا عزيزي! وعد الى ما كنت عليه من هدوء واتزان .

تقدم ادريس من عظيم واجلسه على المتكأ. اما هو فانتحى الأريكة وترامى عليها،وعلامات الارهاق بادية عليه. فغرق في هواجس وخيالات حالت دون سماعه دمدمات عظيم وغمغماته . رغب ادريس ان يعتصم بالسكوت وكم تمنى ايضاً ان يبقى عظيم صامتاً لا ينبس ببنت شفة. اذ ان كل كلمة تطلقها شفتاه بمثابة حجر صلد يصدم رأس ادريس وقلبه وآماله. لم يدر ادريس كم من الوقت انقضى وهو يحتمي بين ذراعي الأريكة صامتاً. ولكن عظيم ، سرعان ما بدد جو الخشوع بكلمات ارتمت في اذن ادريس مثل وخز الابر، او مثل الحصى اللاهبة :

- لقد صممت العزم. .ولن يحول شيء،مطلقاً،دون تحقيق مشروعي. فشرف العائلة،حسب رأيك، يحتم على ان أذعن لوالدي ، فامتنع عن الزواج من امرأة عادية«سكرتيرة بسيطة مغمورة ...» اذن ، في سبيل المحافظة على ذلك الشرف الهزيل المستبد، عليكم ، كلكم جميعاً ان تتحملوا عار جريمة موت ، ومغبة دفعكم انساناً الى اليأس والانتحار. .

سيبقى الدم، على جبين العائلة المحترمة، يستصرخ ضمائركم .

انتصب ادريس امامه ، متوسلا مستعطفاً :

ـ لا !لا، يا عظيم !انت مثقف وعاقل .. لن تفعل ذلك. اقسم لك بالله تبارك وتعالى اني اريدان لا ترتمي بين احضان اليأس والجنون .

ـ اذا اردت ان تنقذني وتساعدني،فليس لك الان تجمعني بها هنا.. فأنا اترك لك تهيئة الجو وما بقي سأهتم به انا .

ـ ولكن.. انا لست .. انا لا اقصد المساعدة في شأن .. عزيزة.. اعني ..

فقاطعه عظيم بصوت متهدج :

ـ سأعود الى هنا في مثل هذا الوقت بعد غد.. ولن انسى ان احضر معي رزمة الجرائد(ونظر الى رزمة الجرائـــد التي كان بها المسدس ثم تابع): اياك ان تضايقني وتحاول ازعاجي. سوف ترى مدى امتناني لك ومدى قوة الوفاء لك في صدري .

اكمل عظيم حديثه وهو يبحث في جيبه عن المفتاح :

ـ اني احبك كثـــيراً يا ادريس ، ولكني احب عزيزة اكثر ،

اتكلت عليك، والآن الى اللقاء .

*

اختفى عظيم بعد ان اغلق الباب وراءه . وسار ادريس الى النافذة ، حزينا مذهولا ، ففتحها واستند اليها بذراعيه ، خفيض الرأس ، مشعشع الفكر والقلب . وفيما هو على هذه الحال ، اقتربت احدى الحشرات من رقبته ولسعته ، فانتزعها بيده وفركها ورمى بها على الارض ساخطاً متوجعاً . . حقاً . . لقد سئم الانفراد وضاق بالعزلة والصمت . ومشى من جديد الى الطاولة ، وبحركة امسك لولب راديو صغير ، ففاضت فجأة اصوات متعالية ، اشمأز منها ادريس ، فأسكت الراديو بسرعة ، وعاد نحو النافذة ، فحمل له الصدى الخارجي ألحاناً حالمة تسيل من قيثارة ، استكان لها ، وبينما هو في هذا الاستئناس ، اذ رن جرس الهاتف ، فقفز ادريس يخرس رناته ، ولسان حاله يردد : تباً لهذه الحياة ! . . ألا استطيع ان انعم بالهدوء ، ولو لحظة واحدة ؟ . . ماهي هذه الحتمية التي تفرض علي ان اعيش في ضجيج متواصل دائم ؟ . . صار ، من جديد ، يجوب فيافي لا آخر لها . ارتمى فوق المتكأ ، وجعل وجهه في كفيه ، وركب مخيلته ، وكاد السفر ان يكون طويلا لولا ان صوت طفل اتى ليغرد في اذني ادريس وليرجعه للواقع ولنفسه . نهض ادريس ، وعاد مرة اخرى الى النافذة ، فبدت له السماء بيضاء نقية ، مثل صفحة الماء

السلسبيل .. ولكنه رأى في السماء رؤوس اطفال.. ومهودا .. وها هي موسيقي القيثارة تنقلب فجأة الى بكاء اطفال يصرخون .. مشت غيوم كبيرة في السماء ، ارتسمت في طياتها صور لأطفال لا يحصون .. من اين جاء هؤلاء الاطفال الذين راحوا يحيكون حـــول ادريس شبكة تلتحم عراها؟..« تباً لكل اطفال الدنيا! اين عزرائيل؟..» ان ادريس يود لو يبكي حزناً وخوفاً وحرقة.. ولكن الدموع تستعصي وتخون. الدموع لا تطيـع الا النساء، انها دائماً في خدمتهن! ما اسعد الاطفال! في امكانهم ان يبكوا، كلما شاؤوا!.. نعم لا يعبأون بالمصير، ويصيحون في وجهه صارخين. ولكن، قد سالت بحور من الدموع، والمصير الانساني لم ينفعل، فهو ايضاً لا يعبأ بالاطفال، وبالمرأة وحتى بالرجل!

الفصل الثاني

ارتمى ادريس على اريكة عتيقة ضخمة يرجع بها العهد الى السنوات الخاليات ، الى عهد الحماية الفرنسية . لو قدر لها ان تتكلم ، ما اكثر القصص الطويلة والقصيرة التي يمكن ان ترويها لنا . لقد صنعت في باريس ، ومرت عليها الايام والليالي في مكتب ثري ماخر ، قبل ان يصطادهـــا ادريس بالجوطية . لشد ما تقسو الاقدار على الاشياء ، اكثر مما تقسو على الناس احياناً !.. الزعماء والقادة ، الوزراء والحكام ، النظم والشرائع ينتابها التطور . قد انطبق هذا القانون الحتمي على مغرب الحمايتين الفرنسية والاسبانية : فكم من «مقيم عام» غرق في عمومياته ، وكم من رئيس مصلحة اصيب بهرم لم يتركه يصلح لأي شيء ، وكم من كاتب امحى مـــع ما سطرته انامله او املاه على كاتباته !.. كل ما في ماضي الحماية ، ان لم يغمره الفناء او الاستقلال ، قد احيل على التقاعد ، الا تلك الاريكة

المسكينة ! انها لم تنعم، حتى الآن ، بالتقاعد والحق في الراحـــة، رغم ما عانته من حمولات الجالسين . ولكن ، ربما كان في دوامها دليل على ان عزرائيل الاشياء ارحم من عزرائيل النوع البشري . من عـــادة ادريس ان يعطف على تلك الاريكة، فلا يجلس عليها الا بلطف وحذر. اما اليوم ، فلم يشعر بأي تعاطف بينه وبينها ، لذلك ارتمى عليها بكل ثقله الجسدي ، والروحي ، والعقلي . لقد تكتلت قواه ، وارتفقت يداه ساعدي الاريكة ، وصار رأسه ساحة فسيحة الجنبات تعترك فيها افكار وعواطف متضاربة . انـــه يمور حقداً على الاطفال ، وعلى الحب وعلى العشاق .

كانت عزيزة جالسة امام الآلة الكاتبة تجربها ، بدمدمة وغضب ، وهي تردد :

– يا لها من آلة ! كأنها صنعت في عصر ما قبل الطوفان !

اثناء ذلك دقت الساعة الكبيرة ، من صدر الحائط ، إحدى عشر مرة ، ايقظت ادريس من احلامه، فانتبه لوجود عزيزة بجانبه، وللمكتبة ، وللعالم العاتم الحزين الذي يبعث في نفسه الرهبة والفزع . اخذ يعد على اصابعه دقات الساعة ، ثم صرخ حائراً :

– الساعة العاشرة؟!

فأجابت عزيزة بلطف ودعة :

ـ انها الحادية عشرة ، يا سيدي .

ـ الحادية عشرة ! ما اسرع تعاقب الدقائق .. ولكن لا قيمة للوقت ازاء ما نتخبط فيه من مشاكل وصعوبات .. فبالرغم من اني لم انجز شيئاً من برنامجي ، هذا النهار ...

ـ هي الحياة تمحو تخطيطاتنا وتهزأ بالتصميمات . وكثيراً ما تتضخم اهدافنا وتطول حتى لتبدو اوسع مدى من احلام الليالي الطويلة ..

ـ ما اظن . بل ان كل رغباتنا تقاس بميزان الابدية . الوقت لص سريع العدو ، ان قعدنا عن اللحاق به ، داس امانينا . ولكن ، مهما حاولنا ، ومهما اجتهدنا ، فلن نستطيع ان نلحق الوقت . في كل ثانية من حياتنا نعزم ان نركض ونهرول ، كأننا قد حكم علينا ان نبقى في حلبة الركض والهرولة..والانكى ، اننا نفكر في التوقف والراحة حتى ولو اختنقت في صدورنا الانفاس ، واستولى علينا النصب والملل .

في تلك اللحظة سمع غناء يتردد في حديقة الدار . فابتسمت عزيزة وقالت :

ـ انها دادا تغني ، سعيدة مغتبطة !

اظن انها المرة الاولى التي اسمع فيها دادا تغني بعد عودتي من مصر ، منذ ستة شهور . الحياة تبتسم لدادا هذا الصباح . ايامها الماضية كانت غناء لا ينقطع . كانت سلوتها الوحيدة في الماضي الغناء وملاعبة

الاطفال، فهي تحب اطفال العالم كلهم!..ان الحياة، في هذا البيت، تبسم وتزهر،او تعبس وتكشر،حسب رغبة دادا .

*

بعدان سكت ادريس بعض الوقت تابع حديثه قائلا:

– امـــا الآن فلنترك الاطفال ودادا .. ما رأيك ، يا سيدتي ، في عظيم! انه رجل رصين شهم! فمما لا شك فيه ان عظيم يتحلى بسجايا نادرة و..والده من اغنى اغنياء هذا البلد .. انك تعرفين ، طبعاً، كل هذا؟

وكأن عزيزة لم تسمع سؤال ادريس ، فقالت :

– ان دادا ، في الحقيقة ، تتمتع بجميل الصفات .. مهما بدت بعض الاحيان غريبة الاطوار . فهي وديعة لطيفة . وقد وكلت الطفل الى عنايتها، لاني اعلم مدى حبها للصغار .

– ذاك سر حياتها . فأكثر الذين حرموا البنين يغدقون على اولاد سواهم حباً عظيما يبخل به كثير من الآباء والامهات .

– ان مرارة العقم تتحول الى احاسيس رقيقة. فتعلق دادا بالاطفال لا يقل عن حب وحنان الامومة . ان التواجد والعادة يخلقان الفة بين الطفل والمربية ربما تجاوزت روعة شغف الابوين .

– كلنا مثل دادا : نبحث من خلال الاطفال عن ماضينا ، عـــن

طفولتنا نحن . انها عودة الى المنبع الاول .

*

رن جرس التلفون ، فتناولت عزيزة السماعة :

– آلو ! الصوت خفيض، لا اسمع ، من الذي يتكلم ؟ حتى الآن ، ما فهمت اي شيء.. النسر الهائج !

شرع ادريس يحك طرف ذقنه بحيرة ، ثم تناول ورقة كتب عليها عبارة وناولها لعزيزة « قولى اني لست هنا » فاسرعت تقول في السماعة :

– آلو ! ايها النسر الهائج . . طلب مني الاستاذ ادريس ان اخبرك بانه ليس هنا !. مع السلامة ايها النسر الهائج .

ووضعت السماعة، وحدجت ادريس ساخرة هازئة : «النسر الهائج» !

اما ادريس فقد اخذ يرتجف وينتفض ، ثم قال وهو يشد على قبضتيه :

– ويحك ، ايتها المسكينة ! ماذا فعلت؟فالذي تكلمت معه هو مدير «النسر الهائج»، اي المجلة النقدية التي اسهم في تحريرها !. ماذا اردت بقولك « الاستاذ ادريس طلب مني ان اخبرك بأنه ليس هنا » ؟ في اي مأزق رميت بي ؟!.

– كل انسان يرتمي في الحفرة التي يحفرها لنفسه !

– كان عليك أن تقولي « السيد ليس هنا» .

– انا هنا لأقوم بوظيفة السكرتيرة ، لا لأراوغ واكذب .

– لا كذب في ذلك يا سيدتي !

– ولكنه تمويه على الحقيقة !

– لا كذب ولا تمويه للحقيقة .. كل ما في الامر اني وعدت ان اكتب بحثاً ابعث به لينشر في «النسر الهائج» .

– اي خطر في تمويه حقيقة بسيطة تافهة ؟

– الحقيقة هي ، هي ، كبيرة كانت ام صغيرة ، عظيمة كانت ام تافهة !. ان التمويه يصبح كذباً كلما خدش الصدق .

– ان تقولي انني هنا ام غير هنا لا يشكل خطراً ، ولا يحدث سوءاً بأي احد !

– أليس شراً ان لا نحترم الحقيقة ونقدسها؟!

– ما اشد عنادك ! من اليقين ان تشبثك قد يسيء الى تصرفاتك مع الناس . فالمرونة ملح الحياة المجتمعية .

– هناك مرونة مستحسنة ، ومرونة قد تقود حتماً الى المجون الخلقي والاباحية العارية . فكم مرة نلجأ الى التعديلات والحجج الجدلية لنغطي انسلاخنا عن المبادىء الاخلاقية .

– من اين اكتسبت هذا الاتجاه الصلب ؟

– من الاكيد ان الجامعة وكلياتها لم تعلمني شيئاً من ذلك ! فالمدرسة الوحيدة التي نهلت منها ، هي مدرسة الناس السذج البسطاء، المدرسةالابدية في حكمتها وزخارة تجاربها ،تجارب الحياة اليومية في الشارع والعمل .

وفي تلك اللحظة ، سمع صراخ دادا تقول :

– اين انتما ؟ وماذا تفعلان ؟ لقد جاع الصغير الحبيب .انه بحاجة الى الطعام !

دخلت دادا الى المكتب ، تحمل الطفل على ظهرها وفي يدها اليسرى قطعة من اللفت ، وبيدها اليمنى سكين . تقدمت من ادريس وقشور اللفت تهرهر من اناملها على الارض ، ثم اخيراً على الطاولة فوق الكتب والدفاتر والاوراق . فأسرع ادريس يحمي اوراقه بيديه صارخاً :

– ما الذي تفعلينه يا دادا ؟ هل تظنين أن مكتبي هو المطبخ ؟!

– اوف !.ما اقل ذوقك ! منذ الصباح وانا اعنى بالطفل ، واحضر لك غذاءك ، وها انت الآن تعنفني ، يا سبحان الله !.

وكشرت دادا ، فرمت السكين وقطعة اللفت على الارض . وبعد ذلك اخرجت علبة التنفيحة من جيبها ، وازاحت عنها الغطاء ورمت به

على الطاولة امام ادريس وهي تدمدم :

– هيا خذ هديتك حالا ! اني ارفضها !

وانطلقت والعلبة ما تزال معها . ثم اختفت ، صاخبة ضاجة ، فتأوه ادريس ، وقال :

– ان الحياة اضحت لا تطاق في هذه الدار !.

فقالت عزيزة مبتسمة :

– وهل تظن ، سيدي ، انه يوجد بيت مغربي ، في كل الرباط ، تتوفر فيه الراحة وشروط العمل؟إن في (دوار الدبغ) و (العكاري) ، أظفاراً عفنة قذرة تقرص اطفالا برآء جائعين يقضون يومهم يترامون بالسباب والحجر وامهات عاطلات يضحكن في بله ، او يصحن في حسرة نحو سماء لا تمطرهن الا بؤساً . نعم ، هناك البيوت (المحترمة) ، فالكسل ينمو بقدر ما ينمو الطعام الشهي ، المتوفر اكثر من الحاجة ، ولكن الهضم صعب عسير !. لذلك لا بد من نومة ، بعد الغداء تتبعها اجتماعات شرب الشاي ، مع كل ما يتخللها من ثرثرة لقتل الوقت !.

– قد بلغني ان الاحوال قد تطورت منذ غيابي عن المغرب .

– تبدلت الظواهر فحسب ! واذا كانت سلطة الشاي قد تقلصت

شيئاً ما ، فذلك لصالح الويسكي !.

*

دق جرس الباب ، فركض ادريس ليفتح .

ـ انه ساعي البريد : شاب في عامه الخامس والعشرين، يختال تيهاً في لباسه الكاكي الاصفر النظيف ، تقدم وحيا ادريس ، منحنياً، ثم قال:

ـ اتيت بطرد صغير . وارجو تسليمي مائة وثلاثة فرنكات .

امسكت عزيزة الرزمة ، وتفحصتها ، وقالت ساخرة :

ـ لاشك ان مرسل الطرد من طائفة المثقفين البوهيميين ! لهذا نسي ان يجعل الطوابع البريدية .

ابتسم ادريس، وسأل هل على الطرد اسم وعنوان المرسل ؟ فأجابت عزيزة بأن هذا قد اغفل ايضاً ، يا لها من غباوة !. احمر وجه ساعي البريد ، ودمدم :

ـ لست غبياً، مع اني انا مرسل الطرد! لم اجعل الطوابع البريدية، ولكني هيأت وصلا بـ ١٠٣ فرنك .

ـ ؟؟؟

ـ نعم ! انا .. واليك ما حدث بالتفصيل يا سيدي : التقيت بأحد اقاربك وهو يخرج من دكان الجزار فرجاني ان كانت عندي رسائل

سأسلمك اياها هنا، ان احمل اليك شريحتين من اللحم. وللحال عدت الى مركز البريد فوزنتهما ورزمتهما كما ترى. (ولما لاحظ دهشة ادريس وعزيزة تابع في اضطراب) : هكذا وماذا ايضاً ..

احمرت وجنتا الساعي من جديد ، وهو يرى عزيزة وادريس يبتسمان فقال له هذا الاخير :

– لقد اضعت وقتك يا سيدي . لا شيء يبرر رجوعك الى مركز البريد ، لانك استلمت شريحة اللحم على بعد بضعة امتار من هنا !.

– حقا ولكني ما كنت لافعل ذلك في يوم من ايام العطلة .

فتقدمت عزيزة من الساعي وقالت :

– لا حرج ! فلربما تقاضيت اجر ساعات اضافية ، لو وقع ذلك يوم العطلة .. اما انت يا سيدي ادريس فان شريحتي اللحم قد كلفتاك ضعف ثمنها المعتاد !.

وصاح ساعي البريد في وجه عزيزة بحدة :

– ارجوك ايتها السيدة !. انني واحد من جهاز اداري يعمل لمصلحة المجتمع . فلنفرض انني لم آت باللحم وبالمراسلات ..

فقاطعته عزيزة ، بلطف :

– لحصلنا على اللحم بثمن ارخص !

– انا لست مثل السيد الدكتور (وأشار الى ادريس) اوالبروفسور الدكتور .. اسمحوا لي فأنا لا اعرف كيف اناديه و .

– لو كنت مكانك ، يا اخي ، لقلت ، بكل بساطة «السيد» ، لا غير . فالالقاب توافه وقشور ..

– ولكن «السيد» تصله الرسائل ، تارة بعنوان البروفسور، وطورا بعنوان الدكتور ، ومرة بالاستاذ الدكتور ... ثم انه يستلم كل يوم كتباً ومجلات وصحفاً كثيرة ..

وتدخل ادريس ، فسلم الساعي مائة وخمسين فرنكا ، لقاء الطوابع البريدية ، وما تبقى منها فهو هدية للساعي . ألسنا في بلاد عربية اشتهرت بـ «البقشيش» والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه !.

*

خرج الساعي مودعاً . ولم تمر الا ثوان حتى دق جرس الباب ، من جديد . فدخل الساعي وهو يقول :

– المعذرة ، يا سيدي ! اليك هذه البرقية ، لقد نسيتها في حقيبتي ..

فصاحت عزيزة ضاحكة :

– اعد البحث في حقيبتك ، فلربما تكون قد نسيت اشياء اخرى يجب ان تسلمها للسيد ادريس . وبعد ان ارسل الساعي نظرة فاحصة

في الحقيبة ، من جديد ، قال :

– ليس معي الا رسائل و مطبوعات ، سأودعها في صندوق البريد الذي على الباب الخارجي للدار .

– يا لك من فاضل بسيط ! وما يمنعك ان تسلم ذلك للسيد ادريس حالا ؟

– لا ، لا ! انت تعرفين القانون يا سيدة . نظامنا جلي واضح !... فالفصل التاسع ، الفقرة الثالثة ، البند الخامس ينص على :

اولا – الرسائل والطرود البريدية – الا في حالة زيادة الاجر ، مثل هذه الرزمة (واشار الى شريحتي اللحم اللتين ما زالتا في يد ادريس) ، اجل ، اريد ان اقول (واجتهد ان يتذكر ، وتابع بتروٍ وتمهل) ان كل الرسائل ، والطرود البريدية ، والمطبوعات يجب ان تودع في صندوق البريد .

ثانياً – تسلم للمرسل اليه ، او لمن يفوض اليه حق التوقيع كل الاشياء البريدية المسجلة ، على اختلاف انواعها .

ثالثاً – من الافضل ان تسلم البرقيات ، للمرسل اليه ، يداً بيد و ..

أخذ منه ادريس البرقية ، وناوله مبلغ خمسين فرنكا ، قائلا :

- خذ هذا ، مع خالص شكري .

استلم الساعي قطعة الخمسين فرنكا وهرول خارجاً وهو يردد :

- شكراً يا سيدي .. شكراً يا سيدي ..

وطفق ادريس يدمدم، في ضيق وسأم ، ان التشبث الاعمى بالقانون يقود ، حتما الى الغباوة .. فأردفت عزيزة :

- اما انا فأفضل مثل هذه الغباوة على ما يقوم به بعض الموظفين من تناس للقوانين ، بل من احتقارها .

- ولكن الحكمة هي العمل بأن «خير الامور اواسطها ..»

- نحن ننتظر من المثقفين ان يدلونا على مكان الوسط !. حتى نعرف بدايته ونهايته !. وحتى نعرف ايضاً متى يكون ذلك الوسط حقيقياً او غير حقيقي .

- انها مسألة حدس لا غير . فالذي يعجبني عند ابن عمي عظيم ، من بين صفاته العديدة ، هي سرعة اهتدائه الى الوسط من الاشياء والامور .

- منذ لحظات حاولت يا سيدي اقناعي بأن هناك نوعاً من الكذب المباح ، انستطيع ان نجعله في منزلة بين الباطل والحق ؟!.

– ما اظن ان القضية تطرح هكذا ، فعلى وجه العموم ، لا بد من وجود الحقيقة والكذب . ومن البديهي انه يوجد بينهما ما لا ندعوه كذبا اكيدا،او حقيقة تامة !

– وفي هذا الذي لا يسمى حقيقة تامة ، او كذباً صافياً ، خالصاً ، يعيش اهل الثقافة والفكر !.

– نسيت ان اشير كذلك الى وجود الحقيقة الجزئيـــة والكذب اللا ارادي .

– كما يجب الا يفوتنا ان نفرق بين الكذب الصادر عن الخبث اوعن اللاا كتراث الاحمق ، وبين الكذب البريء الطاهر !.

– انك تلقين بدلوك في كل بئر ، يا عزيزة !

– أؤكد يا سيدي ، انني لو كنت مثقفـــة ، لوجدت لكل شيء عذرا، كما يقول كثير من الرجال.

قهقه الاثنان ، وراح ادريس يحل ربطة العنق . ثم استأذن عزيزة ، قائلا :

– اصغي الي ، يا سيدتي. لم يبق امامي الا زهاء نصف ساعة،لاغير. سأملي عليك هذه الرسالة . . هل انت على استعداد ؟

– اجابت عزيزة بنعم . وفتحت محفظتها ، فتناولت ورقة وقلماً ، وأخذت تنصت فبدأ ادريس يروح ويجيء وهو يملي :

الرباط ، يوم الاربعاء ٧ مايو ١٩٥٨

صديقي العزيز

يحفظك الله

☆

رن جرس الهاتف ، واسرع ادريس فوضع يده على السماعة ، دون ان يرفعها . وراحت عزيزة ترقب حركاته وهيئته بفضول كثير . . .

الفصل الثالث

بينما كان ادريس يتحدث في الهاتف ، شرعت عزيزة تحيك الصوف ، بعد ان ازاحت منديلها الحريري عن رأسها . بدت خيوط الشمس المنعكسة على المرآة تمالس شعرها الرسيل ، فتمردت بعض خصلاته متدفقة على رقبتها البلورية . لا شك ان عزيزة تنسجم مع شمس تشرق على كيانها فتضاعف فيه القوة والرواء . ما أدفأ وألذ الشمس السحرية في فصل الربيع ، بالمغرب ! ان من يرى عزيزة ، لأول مرة ، قد يستنقص حدة ذكائها لولا ما في عينيها من حياة مشرقة ، وما في هيأتها من اسرار .

كأن ثرثرة التلفون سدت كل منفذ على ادريس حتى انه لم ينتبه لتلك الانوثة الفوارة ، ولذلك الجمال الخلاب الذي افعم اجواء المكتب كله لطفاً وهدوءاً .

علا صوت ادريس يقول في السماعة :

–إلى اللقاء ، يا صديقي ! سوف اخبرك بكل جديد يحصل .

– الى اللقاء ! الى اللقاء !..

ثم وضع السماعة ، واستدار نحو عزيزة ، فرمت بكبة الصوف جانباً وتناولت القلم والدفتر .

– ارجو ان تصغي إلي ، سأتابع الرسالة . « وبدأ يملي الرسالة وهو يمشي » :

«صديقي العزيز

يؤسفني ان ابلغك اني لن اكتب البحث الذي وعدت به مجلتكم الغراء . فمنذ عودتي إلى بلدي ، استبدت بي حيرة جاهدة ، حيال افكار ومبادىء وفيرة . قد يمضي نهاري بكامله وانا اتخبط بين لهوات عواصف جامحة رعناء تهزني من رأسي حتى قدمي . فأنا في هذه المدينة مثل الغريق .. الغريق .. الغريق « وتابع بصوت اشد حزماً » : امنتبهة انت يا عزيزة؟ ذيلي العبارة بنقطتين للتفسير

– انا منتبهة يا سيدي ! كمل ، علك تطفو على سطح الماء . اني اتبعك بقلق .

– اكتبي بعد النقطتين : فكلما حاولت الصعود ، تحطمت اجنحتي

وهويت الى اسفل ! ولقد سكت العصفور النحيل عن الزقزقة في الغابة، ومات كل صدى وترجيع »

هنا هزت عزيزة كتفيها ، وابتسمت ابتسامة عريضة . فانتبه ادريس الى معنى ابتسامتها ، فتوقف وسأل :

ـ هل هناك ما يزعجك ، يا سيدتي ؟

ـ أبداً ! وهل يجوز لي ان انازعك آراءك ، ان كنت لا اوافقك عليها ؟

ـ لا حرج عليك . سأتقبل بامتنان كل اعتراض يدلني على مواطن الضعف . تأكدي انني اكن لك كامل التقدير ، خصوصاً بعد ان استمعت اليك تناقشين ابن عمي عظيم ، وهذا ما جعلني أؤجل تحرير البحث للمجلة . فما سمعته هذا الصباح ، يجعلني اضع كثيراً من نقط الاستفهام .

ـ شكراً لك يا سيدي . وبما انك غريق يستنجد « وضحك الاثنان » اسمح لي ان ابدي ملاحظة متواضعة . ان العصفور النحيل الذي ذكرته طائر لا حول له ولا طول ، لأنه يزقزق في الغابة موسيقى الانانية والانفراد العقيم . فلن يكون عصفوراً حقيقياً إلا عندما يجتمع برفاقه فيتكاتفون ويتضافرون . فعصفورك ليس إلا ذاك المثقف الشريد الضائع في دروب

الانعزالية . وسيبقى المثقف غريباً ، مثل نبي منبوذ في بلاده ، طالما يبشر برسالة خيالية لا تمت إلى الحقيقة العارية والى الواقع بصلة . ان خبرتي النقابية علمتني ان الفرد قوي بسواه ، وان قوة الانعزال سلبية .

– ولكن ، ما هي الحقيقة العارية ، حسب مفهومك لها ؟

– انها تلك التي تنبثق عن الواقع القاسي ، وليس التي تقبع في علياء الضباب .

– اذن ، علينا ان نعيش الحوادث العادية ، قبل ان نترصد الحقيقة .

– بكل تأكيد ، ان ذلك يفرض علينا ان نتعبأ لتحمل الكثير من الصعاب ومن ضروب الحرمان .

– مما لا شك فيه ، ان بينك وبين عظيم تجاوباً فكرياً ، أغتبط له . ليس كذلك ؟

– هل تتابع ، يا سيدي ، املاءالرسالة ؟

قالت ذلك بفتور ، محاولة تغيير مجرى الحديث . هكذا اسكتت عزيزة ادريس .

فرك ادريس جبهته بشدة ، وشرد بصره على رفوف المكتبة ، قبل

ان يتابع املاءه :

- « في سبيل تطوير الغابة وتحويلها الى ارض خصبة ، قـــد وضع القوم تصميات لا نعد ولا تحصى. ولكن الكثير من المثقفين ، ما برحوا يعرقلون كل سعي وقصد . فما اكثر ما تتحدث عنه الصحف كل يوم من محاولات وتخطيطات . ولكن الجعجعة لا تجدي الا ان تنمي في الناس الكسل وذهنية التهريج . ان اغلبية ابناء هذا البلد فلاحون يتصفون بالواقعية ، فلا يحكمون على خصب الحقل الا في فترة الحصاد . الحقيقة ان اكثر التصميات الموضوعـــة لا تقنع حتى واضعيها . « ضعي نقطة وابدأي فقرة جديدة » .

وبعد ثوان ، استأنف ادريس :

- ونلاحظ كذلك ، ان العدد الوفير من المتطفلين على الثقافة ، أو المدعين للوطنية ، يتشبثون بالاوضاع كما هي ، لانهـــا واتتهم . فلقد انساقت اليهم الوظائف الفخمة بطرق ووسائل لا يعلمها إلا الله وحده ، والراسخون في علم المحسوبية والوصولية ، وبعدهم الطوفان.

سكت وتطلع الى عزيزة كأنه يستجدي موافقتها على ما قـــال . فارتبكت ولاذت بالصمت لحظة قبل ان تقول :

- انك على حق يا سيدي . أعرف اناساً يستبيحون كل شيء لـكي

يبقوا على مراكزهم ، وفي الوظائف والرتب التي يستحقونها . فالسر في تشبثهم هو اغتنام الفرصة قبل فوات الاوان ! لكن ، من حسن الحظ اننا نجد ، الى جانب تلك الزمرة من النفعيين ، الكسالى الجهلة ، جماعات من اهل الجدارة والعمل والبناء قد يظن الاغبياء انهم يصنعون تاريخ امتهم ، وما اكثر المتزعمين السياسيين منهم ! مع ان التاريخ منهم براء ، لأنهم يمثلون الجمود ، وعرقلة التطور .

ـ حقاً ، لقد لمست ما تقولين ، يا عزيزة . فالذين يتطفلون على السياسة والعلم قد تخمت بهم دواوين الحكومة . انهم يحملون ضمائر خنقتها اشواك الجهل والكبرياء والعناد الوقح . واحب سلوك اليهم الكذب . اريد منك ان تضيفي الى الرسالة ما سأقوله الآن .

اخذ ادريس يمشي ، وهو يتأمل ، مطأطأ الرأس . ثم توقف ، واستأنف يملي :

ـ كنت اقول ان .. ان .. اجل .. ان الكذب ، عندالاستغلاليين اضحى فناً من الفنون . الشطط يصحح ، حسب مفهومهم ، بلباقة التكتيك ، والغباوة تداوى بالسكوت والتربص .

*

تضايقت عزيزة من قسوة الشمس ، تنصب على عينيها الواسعتين ، مما

جعلها تطبقها بعفوية . واشتدت وطأة الحرارة في الغرفة حتى اصبحت لا تطاق . فكفت عزيزة عن الكتابة ، متوجهة الى النافذة ، وشدت على الحبـــل ترخي الستائر التي تحول دون الاشعة والحرارة . ثم عادت الى مكانها وهي تقول :

– لا بد من شجاعة نادرة ليتعرف الانسان على واقعه كما هو .

قرع الباب . وقبل ان يذهب ادريس ليفتح ، داخله بعض التردد . واخيراً ادار المفتاح ، فاذا هو امام ساعي بريد مسن يفتعل الابتسام . تخطى العتبة وحيى ، ثم اخبر بأنه يحمل حوالة لحضرة الاستاذ الدكتور ، البرفسور . . وكاد ان يسترسل في سرد الانعات التي تطغى على الذهنية العربية الولوعة بالالقاب والتزويق والتنميق . كاد ساعي البريد ان يطلق العنان للمزيد من مجاملاته التملقية ، ومن الحشو ، لولا ان عزيزة اقتربت منه وسألته :

– ارجو ان اعرف كم مرة يوزع البريد في اليوم ؟ من الواضح ان هذا الحي محظوظ جداً !.

– زملائي يتعهدون توزيع البريد العادي ، بينما اوزع انا الحوالات المالية على اختلافها .

انكب الساعي على الحقيبة يفتش فيها . ثم قال :

– اعذرني يا سيدي ! اظن انني لا احمل لك شيئاً هـذا الصباح ! .. فالعادة هي التي ارغمتني ان ادق بابك . اني كنت في هذا الحي . العادة اجل العادة ! .

فناوله ادريس مائة فرنك ، قائلا :

– وكالمعتاد ايضاً ، خذ هذا .

– الف شكر يا سيدي ! اسمح لي « باردون » والله يهنيكم !

☆

وانطلق الساعي موصداً الباب وراءه بضجة . عزيزة لا يفارقها جمالها وروعتها ، ان ساخرة عابسة ، او رصينة مسرورة . اما ادريس فملامحه تتغير مع انفعالاته . ان قصة ساعي البريد نشرت على وجهه ظلالا من الانبساط ، وابتسم ابتسامة تتسم بالرصانة والوداعة . ثم قال لعزيزة وهو يسخر من ذاته ويحاول ان يستميلها الى الحديث عن عظيم :

– لو كان عظيم هنا ، لأفرغ على رأس الساعي حملا من السخرية دون ان يبخسني حقي من النكت .. ان عظيم موهوب .. له خفة روح عجيبة .. أليس كذلك ؟

التزمت عزيزة الصمت ، فعبس ادريس قلقاً من سكوتها ، وفجأة ، سمع صراخ الطفل ، فاتجهت ابصار الاثنين الى جهة الباب الداخلي . وبعد

لحظات ارتفع صوت مجلجل ، هرم : إنها دادا تغني :

«نم ، يا مومو !

حتى يطبخ عشاامو !

نم ، يا مومو .

حتى يطبخ عشاامو !

.................»

اذ ذاك قال ادريس ، بصوت حنون :

ـ انني لا احس باي تخوف على الطفل ما دام بصحبة دادا ..

*

لملم ادريس ما تشعث من افكاره ، وقطب ما بين حاجبيه ، كمن تجشم فكرة ازعجته . ثم اقترب من عزيزة ، وارتفق زاوية المكتب ، وجعل ذقنه في كفه ، وقال بصوت خفيت مترجرج :

ـ هل استطيع ان اطرح عليك سؤالا ؟..! ان القضية .. وان كانت سراً ، فلا بد لي من ان اسأل مع المعذرة .. لقد سمعتك تتحدثين عن «الطفل» .. هل هو طفلك؟ لما سألك الشرطي عنه ، كنت انا تائهاً في شرودي ، مما جعلني لا افطن الى شيء ..

ـ امر الطفل سر ، بالنسبة لك وللشرطة . فاذا اذعته عليك ، فما

هو الخير الذي ترتجيه يا ترى ؟

ـ انه طفل ليس كباقي الاطفال ، في نظري. فهو ، منذ الآن ، يشكل لغزاً يتوغل في محيطي الخاص . ويغلب على ظني ، ان بين ذلك الطفل وبين ابن عمي عظيم علاقة ما !.

ـ ايه ! كيف ذلك ؟

ـ حسناً ! اشعر انك دخلت انت ايضاً ، في دروب التساؤل!. فان اطلعتك على ما اعلم من امر الطفل ، هل تطلعينني، بدورك ، على كل ما تعلمين عنه ؟

ـ هيا ، تفضل يا سيدي ! كلي آذان .

ـ وردت علي ، امس ، رسالة من زوجتي تصف فيها طفلا رأته في الحلم . وفي هذا الصباح تحدثت الي بواسطة الهاتف عن الطفل نفسه . ولم تمض إلا برهة حتى دخل علي منجدان يطلبان مني ان اسلمهما الصوف لكي ينجدا فراشاً لطفلي !. وحاولت ان افهمهما ، بكافة الطرق ، ان لا صوف عندي ولا طفل لدي ، فلم يقتنعا ، بل زادا تشبثاً وعنـــاداً في الطلب ، يرفدهما ، في الحاحهما ، ان زوجتي هي التي ضربت لهما موعداً هنا ، في هذا البيت .. هكذا دخلت معهما في حوار شبيه بحوار ابكم مع

اطرش . وشاء القدر ان يرتفع صوت طفلك بالبكاء ، وراء الباب الداخلي .

– عجيب والله ! . كلنا نعيش في سيل من سوء التفاهم والاخطاء المزعجة !

انفجرت عزيزة في ضحكة مدوية ، فابتسم ادريس ، وصرح بأن كل ما حصل له ربما كان من قبيل الصدفة ، لا اكثر ، ولكن تتابع الصدف على شكل كأنه مسبوك بتدبير محكم يزحزح المعقولية . فهل سوء التفاهم ، وسوء الفهم اقوى منطقية من منطق عالم المعقول ؟ حقاً ان في ذلك ما يحير تفكير ادريس .

☆

اصغت عزيزة، في ابتسامة من يرتاب فيما يسمع ثم صرحت لادريس :

– لا ، يا سيدي ! يسود اللامعقول كلما جهلنا علة ما يحصل . فجهلنا هو سبب انتصار سوء التفاهم وسوء الفهم .. واليك الآن حقيقة ما حدث ، لأني كنت فيه طرفاً ثالثاً ، دون ارادة مني ! منذ ايام، خرجت من السوق يتقدمني حمال يسير وراء حمار عليه رزمة كبيرة من الصوف ، عندما التقيت بزوجتك . وسرنا معاً حتى ابصرنا المنجدين . فاغتنمت الفرصة لكي اضرب معها موعداً ، لهذا الصباح ، على الساعة التاسعة ،

علي أن أكون متفرغة على العاشرة ، والتحق بعملي هنا ، كما اتفقت على ذلك مع زوجتك . وقبل ان اودع المنجدين ، حاولت ان أدلهما على عنواني ، إلا ان الشيخ قاطعني : « لا تتعبي نفسك ! اني اعرف بيوت المدينة كلها .. وخصوصاً الشارع حيث تقطنين . ألست ابنة الحـاج ... » وانتهره ابنه غاضباً : « إذا كنت تعرف بيت السيدة ، فما الداعي إلى ضياع الوقت ؟ » قد تأكد لي الآن انهما أخطآ عنوان البيت ! . وبما اني وعدت بأن اكون هنا في الساعة العاشرة ، رجوت اخي الصغير ان ينتظرهما في المنزل . وتركت اخي يتميز غيظاً لأن اجمل صفة في رأيه هي احترام الوقت ..

– انها حكاية غريبة ! عجيبة ! (وبعـد ان ضحك قال) : فلنعد الآن الى قصة الطفل .

فتنهدت عزيزة وقالت :

– لا ، ما زلت مترددة .. كيف استطيع ان افعل ..

– اما وعدتني ؟ وهل نسيت ان « وعد الحر دين عليه » ؟

– اود ، اولا ، ان اعرف مدى علاقة عظيم بالطفل .. ومن اين نشأت .

– ان ما اعرفه حول ذلك لن يروي فضولك . سمعت عظيم يتحدث

عن الطفل مرة ، فلم اعره كامل انتباهي . فالافضل ان تطلبي منه ، أنت ، ان يحدثك عن ذلك بنفسه ، فما اظنه إلا فاعلا بكل سرور . والآن ، ارجو أن أسمع حكاية الطفل .

*

رضخت عزيزة لطلب ادريس ، وقـــد كان الحاحاً ولطفاً ، في آن واحـــد . ولكن عزيزة لم تأخذ الحكاية كخط مستقيم ، بل اختارت اسلوباً ملتوياً ، كله دروب متداخلة ، تنحدر احياناً ، وتعلو اخرى ، كسياحة في مدينة فاس حيث تكثر الازقة والفجوات المغلقة . انها سبل معقدة على الشكل الذي يوافق عقلية المغاربة الذين يسعون وراء الجزئيات . متناسين ان «الخط المستقيم أقرب طريق بين نقطتين» . فكانت الحكاية تتوالى وئيدة ، مثل نزهة على ظهر جمل حيث يكثر حط الاحمال وتوفير الراحة . فما اكثر النوادر التي كان يهواهـــا قصاصو العرب ، في الايام الغابرة ! .. وما اكثر ما كانت تضيع على السامع ، حينذاك ، متعة المفاجأة !

– يا سيدي ، بما ان الطفل اصبح ضيفاً عليك الآن ، فاني أئتمنك على سره وقصة حياته . ولكن ، لا بـد لي من ان اتوخى الايجـــاز لطول القصة . عليك دوماً ان تتذكر بأن القضية سر خطير جداً ...

فأجاب ادريس :

– اني أؤمن بأن : « قلوب الاشراف مقبرة الاسرار » ، وانا اعدك ، يا سيدتي ، ان احتفظ بالسر في اعمق اعماقي ...

– لقد دخل الطفل في شهره الثالث عشر . وهو يعيش في كنفي ، منذ سنة تقريباً . (وتناولت منديلها تتمخط به فسألها ادريس) :

– يعني ان والده ، اي زوجك ، تركك شهراً بعد ولادة الطفل .

فأجابت عزيزة ، مبتسمة :

– ان تأويلاتك ، تجري مع امواج الخيال ، في طريق معاكس للواقع : انا لست والدة الطفل !..

– آ ؟

رفع ادريس من حاجبيه ، بعد ان جحظ بعينيه ، فظهرت عليه علامات الدهشة . كثافة السر اخذت تنمو . اما عزيزة فنظرت اليه بصمت ، وكأن لسان حالها يعمل على تحريض فضول ادريس اكثر . ولا عجب ، فالنفوس الرقيقة اللطيفة ، تلجأ احياناً ، الى مثل هذا النوع البريء من السادية الفكرية . تشعر عزيزة بمتعة خفيفة وهي ترغم ادريس على الدهشة والتساؤل ... واخيراً ، راحت تضيء له العتمات :

- فقدت ملكة ، وهي احدى صديقاتي وأحبهن إلي ، زوجها ، ثلاثة اشهر بعد قرانها به ، فكانت صدمة ، وفاجعة ، ثم مرض مخيف فتأزمت حالتها النفسانية حتى كشر الخطر الفادح عن ألف ناب وناب . لقد حدث ذلك في .. امهلني لحظة يا سيدي .. اجل .. حدث ذلك في شهر مارس من سنة ١٩٥٣ . وبرح الالم بالارملة الشابة وساءت حالتها العصبية كثيراً ، دون ان تجد من ذويها من يتفهم وضعها .

فاستفسر ادريس في نفاد صبر لاهث :

- هل لكل ذلك علاقة ما بالطفل ?

- ولم لا ?.. فللقصة بطلان، الطفل ووالدته .

- ولكن .. انا لا افهم . ألم تقولي بأن الزوج مات سنة ١٩٥٣?مع ان سن الطفل الآن لا يتعدى ثلاثة عشر شهراً !

- وأي غرابة في ذلك ?

- اذن ، قد تكون والدة الطفل .. لست ادري كيف اقول ..

- على رسلك يا سيدي ! يجب ان تعلم ان استنتاجاتك خاطئة . ان الذي مات عام ١٩٥٣ ، هو زوج ملكة ، اني لم اتحدث عن اب الطفل بعد .

- ؟؟؟

- منذ ان توفي زوج ملكة ، راح شاب يعرض عليها التزوج . ومن كثرة الإلحاح في المتابعة ، اذعنت ملكة ، خصوصاً وقد تدخلت اسرتها في الموضـــوع ، احيانـــاً بتوسلات واحيانـــاً بجرص ملـــح . لانه ، ويا للاسف ، لم يكن اقارب ملكة يفهمون ان الزواج اختيار وانسجام امرأة مـــع رجل ، وان القضية ليست قضيتهم هم بالذات . فالمرأة ، في رأيهم لم تخلق الا للرجل . لم يستطع ذوو ملكة ان يفهموا بأنها قادرة على كسب لقمة الخبز الشريفة ، دونما حاجة الى زوج! فما زلنا نعيش على اوهام ، نعتقد انه عار ومذلة ان تعيش المرأة من نتاج عملها .

- وفي النهاية هل تم الزواج؟

- قد فطنت انا الى ما في ذلك الزواج من افك وغباوة ، فنصحت ملكة بالرفض. فالشاب الذي كان يريدها زوجة له كسول ، وبليـــد، ووصولي،لا يرجى منه نفع، لا لنفسه ولا لبلاده . ولسوء الحظ استطاع ان ينتزع موافقة ملكة القليلة الخبرة ، بفضل ما له من ذلاقة لسان استولى بها على ذوي ملكة واقاربها .

- ولكن ، من المتزوج ؟ اهي ملكة ، ام اقاربها ؟

- اليس النظام المتبع عندنا هو ان للوالد الحق في تزويج الفتاة ، وفق ارادته ، وما على الفتاة الا ان تحني رأسها وتطيع ؟ ويتم الامر للوالد ، حتى ولو اظهرت البنت عدم قبولها ، بكيفية او باخرى !..

- اعتقد ان سلطة الاسرة التعسفية قد اخذت تزول .

- لم نتوفق بعد في ان نبلغ ذلك . على ان (مدونة الاحول الشخصية) التي صدرت اخيراً عن وزارة العدل ،تعيد للمرأة المغربية حقوقها المغصوبة من طرف الرجال . كما ارجو ان يكون التنفيذ مطابقاً للنصوص !.. فزواج ملكة الاول حبكه اهلها في سبيل مصالح مالية تربط بين والدها ووالد زوجها المرحوم ،وعلى فظاظة ،احتملت ملكة اضمحلال الآمال العذاب ، وزجت بقلبها ومستقبلها في قران المضايقات ، مطأطأة الرأس امام مصالح والدها الغاشم . كل الاسرة طالبتها ان تطيع اباها ، لأن ذلك واجب عليها محتم ..

- ولكن الزاوج الثاني ، حسب الذي فهمته منك كان بقبول منها ، فلم تكن من فائدة لابيها فيه حيث لا مصالح مادية بين الاسرتين !..

- صحيح . ولكن الحكم عليها اصدرته قداسة التقاليد الموروثة التي لا تمس .. ومنها ان الفتاة يجب ان لا تبقى وحدها ، وانه عار ومذلة ان

تعيش امرأة دون زوج ، لانه بدون زواج لا تصون المرأة عفتها،و ...
والله يعلم كم لملكة من حرص على كرامتها . وهناك اسباب اخرى
معقدة ، انا ايضاً لا اعرفها ..

ـ هكذا ضحوا بها ، من جديد ؟ وهل هي على الاقل ، سعيدة في
زواجها الثاني ؟

ـ أواه!.. لم تمض على الزواج الا بضعة اسابيع حتى استقر الاثنان
في قرية (صفرو). وشعرت بان ملكة تعاني آلاماً مبرحة ، بصمت
واذعان ، لا تريد ان يشاركها اي انسان في ما تعانيه .. واخيراً اتضح
ان زوجها الثاني لا مطمع له الا تلك الثروة الضخمة التي ورثتها من
زوجها الاول ،كما فسرته لي في رسائل طويلة ملتاعة حزينة.

ـ يا لنذالة الرجال ! مسكينة ، ملكة !

ـ احتملت ملكة كل محاولات زوجها بصبر ، ساعية بحزم وحكمة
ان تحبط مساعيه . وما ان يئس الزوج النفعي من تحقيق رغباته الدنيئة،
حتى طلب الطلاق ، وهو يغلي حقداً وغضباً... وقد تبين ان الحافز على
الاستعجال بالطلاق، هو الرغبة في ان يتزوج بأرملة اخرى من اسرة
ذات مركز سياسي مرموق. فرأى ان في هذا الزواج سبيلا لبلوغ بعض

الوظائف العليا التي لم يكن ليصل اليها دون المحسوبية . فلا كفاءة ، ولا ماض ، ولا حسن نية . ولكن ، المنة لله ! ان ليس كل شبابنا من هذا الطراز !

ـ مسكينة ملكة !.. قد عاشت مأساة : اما ان تتظاهر بالحب لزوجها ، مصطنعة السعادة ، واما ان تكسر الجليد ، فتضحي عرضة لسخط عائلتها ومضغة تلوكها الالسنة ، على كل صعيد!..ما اكثر الذين قست عليهم الاقدار ، نظير ملكة .. فابن عمي ، عظيم ، المهندس الذي رأيته هنا ، والسياسي المحنك الفطن ،يمر الآن بفترة صعبة جداً..انه ، بفضل ما وهب من شجاعة ، وجرأة ، وحسن طوية ، يسعى الى الزواج من امرأة يحبها ، كامل الحب ، غير عابىء باعتراض اسرته ومصالحها المادية .

*

سكت ادريس، وعلاه الخجل مثل صبي يغامر . وطال سكوته وهو يترقب من عزيزة ان تجيب ، ولكنها لم تنبس ببنت شفة . واحس ببرد يسري في جسده رغم الحرارة التي تذرذرها شمس مايو . وتحول البرد في جسمه الى تشنج في الاعصاب رمى به الى اسفل دركات التقلقل والتردد الصعب المضني... تخيل (عظيم) ممسكا بالمسدس يعصف به هيجان الحب

والثورة العارمة الماحقة في دنيااللامعقول . التفت ادريس الى عزيزة ، فاذا هي تتوغل في ضباب كثيف ، حتى ان رأسها بدا اكثر الغازاً من ابي الهول . اومضت عزيزة بعينيها واغمضتها ، فكان في ذلك اكثر من معنى ، انزعج منه ادريس ... هل اسم (عظيم) يخضها خضاً عنيفاًفيجعلها تهوي الى عالم غير عالمنا؟.. ام يمثل (عظيم) ثمرة فجة مفعمة بالحموضة؟.. ناء ادريس تحت ثقل سكوت عزيزة . فحاول ان يتذكر الى اين انتهيا في قصة الطفل . واخيراً قال :

ـ مسكينة ملكة !.. مسكينة !...

ـ ما افظع على المرأة الكريمةان تدعى لتمثيل دور الزوجة السعيدة، وهي موقنة انها شيء تافه مبتذل ، في بيت لا نظام فيه ، ولا حب ، ولا اخلاق !

ـ قوام الجبن التهرب من الواجب . ولكن ، ليس لنا دوما ان نهتدي الى حقيقة الواجب ، او اذا اهتدينا ، لا ندري كيف نختار من واجباتنا افضلها .

ـ من دواعي حسن الحظ ، ان ملكة ، قد وهبت حدساً قوياً يعينها على تحسس نوايا الخطاب الانتهازيين،كما رزقها الله قلباً كبيراً طاهراً .

ـ ارى انك نسيت الطفل وما يتعلق به !.

ابتسمت عزيزة ، واعترفت بأنه حان الوقت لتدخل عالم الطفل من الباب الواسع . فأظهر ادريس مزيداً من الفضول ، واستعجل عزيزة في ان تجلي السر الذي يكتنف ليحل اللغز .

ـ وفي النهاية ، تم الطلاق رغم ان ملكة احتملت الكثير، وبرهنت على اخلاق نادرة . اما الزوج ، فيتربع على كرسي وظيفة محترمة بفضل وساطة اهل زوجته الثانية ! أحست ملكة ، بعد اسابيع من طلاقها ، بانها حامل . . واحتقاراً منها الزوج الجلف ، اخفت عنه خبر الحمل حتى لا تبقى بينهما اية صلة . فرأت من الاجدر لها ان تعتزل الناس ، وتذهب لتسكن في «زواغا» حيث تملك ضيعة ورثتها عن زوجها الاول . وصادف ان عرف اهلها امر الحمل ، ففضلوا ان يكتموه ليبقى الطفل سراً ، لانهم صدموا في ثقتهم بالزوج الشرير ولأن ملكة صممت العزم على ان تقطع بينها وبينه كل صلة . انها تفضل ان يبقى المولود تحت حضانتها وحدها ، دون ان يكون لاي انسان الحق في ان يشاركها تربيته وحبه .

ـ لا شك ان في الامر خطراً علـى ملكة وعلى المولود كذلك ، وسيتضخم اخطر كلما تقدمت السنون ،عندما يبدأ الطفل يسأل عن والده !.

ـ الى حد الساعة ، قد تحقق ما ارادت ملكة ، ومـــا زال السر محفوظاً ... اما المستقبل فبيد الله .

*

خيم الصمت من جديـــد ، فطفق ادريس ينقل المسطرة بين انامله ، مفكراً مهموماً . وبعد فترات ، تطلع الى عزيزة ، وقال :

ـ اذن كنت تقولين بأن الطفل ..

ـ لي اخ ..

ـ الذي وكلت اليه انتظار المنجدين ؟

ـ لا ، لا . اخي الاكبر . اراك عدت تقـــلد المنجد الشيخ «يضحكان» ...

ـ ليس من حافز الى الاكثار من الكلام مثل التعليم او الصحافة ، اما انا فقد مارست هاتين المهنتين معاً سنوات عديدة .. والآن ، فلنعد الى قصة الطفل .

ـ قلت ان لى شقيقاً لم تسمح له الاقدار بأن يتابع الدراسة الاسنوات معدودات ، استطاع خلالها ان يحفظ الستين حزباً من القرآن الكريم ، ولكن المولى تعالى وهبه ذكاء فريداً ، مع لطف وتعاطف ، مع حماس

واخلاص في كل ما يعمل .

-- نعم الرجل !.. وهل لاخيك هذا علاقة بالطفل ؟

ـ طبعاً ! فلولا ذلك ما تحدثت عنه . كان اخي يميل ، منذ صباه ، الى ملكة : حب الاطفال حب براءة . قد تعرف على ملكة منذ حداثة سنه ، لأن اسرتها كانت تسكن في جوار اسرتنا . لكن ، لم يخطر على بال اخي ان يخطب ملكة ، لاننا من عائلة مغمورة فقيرة .

استمع ادريس الى كاتبته تحكي بتأثر . فرغم الاعجاب المتبادل والتعاطف اللذين كانا يربطان قلب ملكة بقلب اخ عزيزة ، لم يجرؤ ان يبوح لها بما يكنه لها من حب . آه من من الفقر ! انه يخرس الالسنة ، ويمزق العواطف والرغائب النبيلة !. تثقفت ملكة ، لأن اسرتها غنية ، وكانت ضحية الزواج الاول والزواج الثاني لأنها من اسرة غنية ! ما اقسى الثروة على المحرومين ، وما اثقلها كذلك ، على مصير اصحابها ! ملكة متعلمة ، ولها خلق حميد ، فلم تكن لترفض ، وهي المتحررة فكرياً ، الزواج من رجل تحبه ، رغم فقره ، ولكن اسرتها ... ولكن ثروة ابيها .

مرت الايام ، فازدادت قدرة ملكة على التحرر من رقبة الاسرة ،

خصوصاً بعد صدمة الزواج الاول المأساتية ، خيبة الزواج الثاني ... لقد فعل الحب أخيراً ، فعلته ، فتجرأ اخو عزيزة ، وتحدت ملكة العرف والعادة والاسرة ، فكان النصر للحب وللاخلاص .

خرج ادريس من شروده ، وصاح متعجباً :

- واخيراً تزوجا ! أليس كذلك ؟.

فاجابت عزيزة ، بهدوء :

- نعم . وهما الآن اسعد زوجين عرفت في حياتي . بعد الزواج بقليل ، اتفقا على ان يهجرا الرباط ، ليقيما في «زواغا» .. لان الزوج الثاني المخبوت ما زال يقيم في الرباط .

- حسناً فعلا !.. فلقد اتبعا المثل المغربي : « لا عين رأت ولا قلب وجع »

- انهما ، يا سيدي ، ينعمان بأجمل واروع حياة عائلية ، قوامها الوئام والمحبة ، فبعد الزواج الاول ، زواج مصالح تجارية بين اسرتين ، على حساب ملكة ، وبعد الزواج الثاني ، زواج الطمع المقيت...

- نهاية سعيدة .. ولكن .. والطفل ؟

*

ارتفع ، فجأة ، صراخ الطفل يعقبه صياح دادا الحـــاد. فركضت

عزيزة يتبعها ادريس صوب الباب الداخلي . واصطدم ادريس بطرف السجادة ، وتعلق كمه بالطاولة، فسقط على الارض، فاذا الكتب والمجلات والاوراق والمحبرة تنهار عليه ... كانت عزيزة قد اجتازت عتبة الباب الداخلي ، وادريس ما يزال يسبح بين الكتب والاوراق والحبر المراق المندلق على السجادة ... سكت الطفل عن البكاء، ولكن دادا ازدادت ضجيجاً وصراخاً . ولما وقف ادريس وتحسس ذراعيه وفخذيه ،لمح عزيزة تدفع عربة الطفل بيسراها بينما استندت دادا متعبة منهوكة على يمناها ، وهي تسير مطبقة العينين. خف ادريس نحو دادا ، فامسك بها وراح يستفسر بيديه وعينيه وهيئته جميعها ... فقالت عزيزة ، بلطف :

- المسكينة ! لقد تقيأت طعام الفطور ... مسكينة دادا !..

- هيا نامي على المتكأ ، يا دادا !.

ساعدها ادريس ، فارتمت على المتكأ تئن وتعن . وارتبك ادريس ايما ارتباك فراح يقول :

- اخبريني عما حدث لك يا حبيبتي دادا .

الفصل الرابع

جلست دادا على المتكأ، وقد تلفلفت ببطانية حمراء، واخفت رأسها بمنديل ابيض حتى صدغيها، وامسكت بيدهـــا ليمونة تشمها بنهم، كأنها تستنزف ما فيها من قوة على الانعاش وتبعد احياناً الليمونة عـــن انفها لكي ترسل تنهدات وتأوهات. كل الناس يتشابهون مـــن حيث تأوهاتهم وتنهداتهم، إلا دادا فتنفرد عنهم في هذا الميدان، ان مـــن يسمعها تئن وتتنهد يظنها من حيوانات الغاب. كان يعلو صراخ دادا حاداً خشناً:

ـ قوع!.. قوع!.. إيخ... إيـــخ... اين انت يا ادريس!..لا! لا اريد ان اشرب. اعطني علبة التنفيحة.. نعم اريد التنفيحة فقط.

فدنا ادريس منها، مرتبكا وقال:

ـ لا تجهدي نفسك هكذا! ليس من خطر عليك! هيا! تشجعي.

– قوع !.. قوع !.. إيخ ! إيخ !

تيقن ادريس ان دادا ستتقيأ ، فبث عينيه في الغرفة كلها . وها هو يهتدي الى طربوش ، في زاوية ، فيحمله ويضعه امام فمها ... يالسخرية الاقدار ! أبهذه السرعة يتحول غطاء الرأس الى ... ولكن لا بأس . ما اكثر الاشياء التي تنحدر الى اسفل درجات الانحطاط والمذلة ، بعد ان تحلق في اجواء العظمة والرفعة والشرف !. لولا ما كان عليه ادريس من قلق لاستخلص حكمة «عميقة» من حالة الطربوش ، فسبحان من يعز ويذل ، سبحان مبدل الاحوال ! ولكن ، انى لادريس الهدوء ليتوغل في اعماقه ! ان افكاره واحاسيسه موزعة بين دادا المريضة ، وبين عالم ذلك الطفل المبهم المليء بالاسرار الغامضة .

وسرعان ما ابعدت دادا الطربوش عنها غاضبة صارخة :

– اشفق علي ، يا ادريس ... اين التنفيحة الحبيبة ؟ هاتها حالا ! هيا ! هيا ! حالا !

واطبقت عينيها ، وكفت عن الصراخ والكلام . حينذاك ، طلبت عزيزة الى ادريس ، بلهجة لا تخلو من انفعال ورثاء :

– عليك ان لا تتغاضى عن العناية بدادا . اظن انها بحاجة الى

الطبيب .. يجب ، يا سيدي ، ان تدعو الطبيب حالا !.

ـ لا تنسي ، يا عزيزة ، اننـــا في فترة الظهر أي ، في وقت يتناول فيه القوم طعام الغذاء، وبعده شربوا الشاي، فالقيلولة، ثم الشاي مـــن جديد .. اني متيقن انه لا يوجد ، في الرباط ، اي طبيب يقبل ان يحضر الآن الى هنا قبل حلول الساعة الخامسة مساء .. ثم ان ..

ـ معك الحق ! هذا هو واقعنا مع الاسف !.. ولكن .. ما رأيك لو تلفنت للدكتور فاضل ؟ ما اظنه يتأخر في المجيء بسرعة .

ـ سمعت بأن فاضل ليس طبيباً.

ـ لا تصدق، يا سيدي، كل ما يقال ! ان فاضل خريج جامعـــة «مونبليه» :

ـ حقاً ، ان فاضل درس بـ «مونبليه» ، ولكنـــه تخصص في علاج الحيوانات ، فهو بيطري ، لا طبيب ..

ـ نعم ، يا سيدي ، ولكن ، هل نحن جميعاً سوى حيوانات ؟

ـ حقاً ، اننا حيوانات ، ولكنهـــا « حيوانات ناطقة » ، كما يقول الفلاسفة ..

ـ أري من الاجدر ان نترك الفلاسفة يتمنطقون. المهم هو ان نسارع

الى تخفيف اوجاع دادا ، بدل ان نهدر الوقت في النقاش .

غاصت عزيزة في التأملات ، ومضت لحظات ثم قالت :

ـ نعم، دادا، كغيرها من الناس ، حيوان عاقل ، ولكن حيوان قبل كل شيء . فيجب علينا ان نعتبرها حيواناً ذا جهاز هضمي . اذن ، في مقدور الدكتور فاضل ان يساعد دادا على الهضم ، فيزول ألمها . اليست «المعدة رأس الداء ...»؟ نحن اولا قناة هضم ، ثم عقل وفكر وعواطف ... الا تسمع دادا تشهق ، مما يدل على ان معدتها محشوة متخمة ؟ ..

ـ فليكن ما تريدين . هيا ، تلفني للدكتور فاضل !.. ان ما تدعين يضاد ما اخذناه عن كبار المفكرين . مثل افلاطون ، وابيقراط ، وابن رشد ، وداود الانطاكي . فلنهتم يا سيدي ، اولا بدادا ، ومن بعد ذلك تأتي المحاضرات والابحاث !.. على كل حال ، لست اعرف شيئاً عن اولئك الفلاسفة والمفكرين الذين سميتهم الآن . انهم بالنسبة الي ، قطوف حامضة فجة ، رغم اني تابعت الدروس بعد ان حصلت على شهادة البكالوريا .. يبدو لي انك تفرق بين معدة الانسان وكرش الخروف .. فليكن ما اردت . ولكن رفعة الشأن

لن تكون دوماً في صالح الانسان المفكر ، صاحب المعدة ،! واخيراً، اتسمح لي بأن اتلفن الى فاضل ؟

*

اقتربت عزيزة من الهاتف ، ورفعت السماعة الى اذنها ، ولم تلبث ان اعادتها الى مكانها ، من جديد ، وهي تقول ، خجولة حيية :

– اظن ان الرقم هو ٣٣٩٣٣ ، اجل ، هذا هو الرقم الحقيقي .. ولكن تعدد الرقم ٣ جعلني اتردد ، فلست ادري اذا كان علي ان اقرأ الرقم من اليمين او من الشمال..

– اوف . الا تعلمين ان الدروب كلها تقود الى الطاحونة؟!..

وفي هذه اللحظات فتحت دادا عينيها ، وشرعت تشم الليمونة،وبعد جهد ظاهر ، استطاعت ان تقول :

– اريـــد .. قوع .. قوع .. اني سأموت ، قوع .. ولكن .. قوع .. يجب علي ان اذهب .. « واغرقت يديها في جيبها » : اين هي.. قوع .. قوع .. نعم ، اين هي .. قوع .. علبة التنفيحة .. اين هي ؟.

ناولها ادريس علبة التنفيحة ، بعد ان قبلها على جبينها ، قائلا :

– حبيبتي دادا !

فتناولت العلبة ، وانتابتها عاصفة مـــن العطس . وتمخطت بقوة وضجة . ثم تنهدت وشمت الليمونة قبل ان تتمتم :

ـ الحمد لله رب العالمين !.. ها انا على احسن حال ، الآن ! «والتفتت الى عربة الطفل وهمست» : ما ابهاك ، يا ملاكي الصغير ! اما انتما، فيجب ان ادعكما تشتغلان .

وبعد ان خصت كلا من ادريس وعزيزة بابتسامة عريضة ، وشمت الليمونة شمات متوالية ، وركزت المنديل على رأسها ، دفعت العربـــة امامها ، وهي تردد :

ـ استودعكما الله ورسوله !.

غابت دادا، وراء الباب الداخلي. اما عزيزة فما تزال ممسكة بالتلفون. فرمقها ادريس ، وابتسم ، وقال :

ـ صدقيني ! إني ارى دادا مريضة ، لأول مرة ، هذا الصباح! وبعد هذا الفاصل اللا ارادي ، دعينا نعود الى قصة الطفل . هل توافقين ؟

ـ لا مانع ، يا سيدي ، فبعد ان مضى شهر على ولادة الطفل، حصل الزواج الثالث . وصمم اخي ان يتبنى الطفل ، ويستأثر بتربيته ويتعهده بعطفه وحبه .

– ارى ان الأمور كلها دبرت بطريقة محكمة ! ونتيجة لما حصل ، عينت انت مربية للطفل . أليس كذلك ؟

– لا ، لا ! لست مربية للطفل فقط ، اني اسعى دوماً ان اكون له مثل الام الحقيقية ، عاطفياً وماديا .

– يا سعد هذا الطفل ! فله انت ام ومربية ، واخوك يحضنه ، بكرم ونبل . اما ابوه الحقيقي فيسخر في غيبة الجهل والغرور . هكذا تضافر رجلان . فالاول تسبب في ولادة الطفل ، دونما علم منه او وعي او ادراك بينما تعهد الثاني ان يجعل منه رجلا .

ابتسم ادريس ، وتابع بلهجة البروفسور :

– اما دورك انت ، على ما يظهر ، فهو ان تسهري على تكوينه الخلقي .

– اود لو كان ذلك في امكاني . ارجو ان اوفق فأجعله لا يشعر بفقدان العطف الابوي ابداً .

*

صمتت عزيزة متأوهة متنهدة ، وتبدلت اسارير وجهها ، وبانت عليها آلام أثارها تصارع بعض الرؤى السود ، وكأنها تتوغل في عالم من

العتمة ! فما هي اسباب آلامها ؟

اشفق ادريس على عزيزة ، وهو يراها صريعة احزان ووساوس، وانزلقت من حلقه كلمات متلطفة :

– اعتقد انك اوقفت حياتك على سعادة الطفل . لكن ، رغم ما في موقفك من خلق رفيع يشرفك ، ويشرف من خلالك المرأة المغربية ، لا اوافقك تمام الموافقة ، لانك في ريعان الشباب ، فيجب ان تفكري في مستقبلك ، فلنفسك عليك حق .

نطق ادريس بهذه الكلمات الاخيرة، ببطء كمن يتهجى .. واتبع الترتيل بالابتسام ، قبل ان يعود الى دنته ، الى محاولة التحدث عن عظيم ... ، وطبعاً صادف مرة اخرى من عزيزة تهرباًاستراتيجياً . قال ادريس :

– ارجو ان اهيىءلك فرصة لتتعرفي ، عن قرب ، على ابن عمي المهندس عظيم . فهو بالاضافة الى ثقافته النيرة ، دبلوماسي حذق ، وله خبرة في حل المعضلات فلربما احتجت اليه .. اتريدين ان اتلفن لهليحضر؟

وما ان انهى ادريس عبارته الاخيرة حتى تغلغل فيه ارتياح : لقد تغلب على الجهد المضني الذي بذله. فانفرجت اسارير وجهه، ومسحالعرق

المتحلب من رقبته ومحياه ، وحك ذقنه ...اما عزيزة ، فما تزال ذاهلة ، وبدأ يلمع احمرار وجنتيها الورديتين ، فقالت بحزم :

– اشكرك جداً ، يا سيدي . لا ارى مـــا يوجب ان تتلفن للسيد عظيم .

ارتج على ادريس ، ولكنه استطاع في النهاية ان يقول :

– كنت تقولين .. ان .. بلى . انك تعتنين بالطفل حتى يشب ..

– بغيتي الاولى ان يسيطر الهدوء والسلام في بيت ملكة ، صديقتي الوفية المخلصة الذي هو بيت اخي ايضاً . فوجود الطفل بجانبها من شأنه ان يعكر ذلك الهدوء .. اذ ان ملكة سترى في الطفل دوماً ، الثمرة المريرة للوالد العاق الطماع .

– لا شك في ذلك . من الجائز ان تحدث مشادات ومنازعات بسبب الطفل .. وقد يؤدي الحزن والكبت الى الحقد والتمرد .. ان الحقد ، مثل الحب ، اعمى . ولا جرم ان ابعاد الطفل يوفر له الراحة والسلام ، ويجنب بيت ملكة كثيراً مما يمكن ان يعكره .. لكن ، بالنسبة اليك ، فالأمر يشكل حاجزاً بينك وبين الزواج .. ويقعد بك عن بلوغ امانيك ورغائبك في الحياة .. فمن كان في سنك ..

ـ لقد فكرت في كل ذلك ، يا سيدي . ولكن سعادة ثلاثة من الناس جديرة بأن يضحى في سبيلها بحياة امرأة واحدة !. ومن يدري ؟ لعل منبع سعادتي في بذل قواي من اجل هذا الطفل . ولا اكتمك ان لشقيقي ، في عنقي ، الف دين ومنة . فقد ساعدني على متابعة دروسي وبذل كل غال ونفيس في سبيل كرامة وعزة ذوي كلهم . واليوم ، اجد نفسي مغتبطة لاني استطيع ان افي اخي بعض الدين الذي له في ذمتي .

ـ ان في كل ذلك ما يضاعف اعجابي بنبلك ، ويوضح لي مفهومك للحياة . ولكن الا تعتقدين ان نسيان الذات يضاد الطبيعة ويعاكسها ؟ وان الواقعية تحد من شكيمة المثالية المتطرفة .. ثم اني واثق من ان الكثيرين من المغاربة المرموقين يتمنون ان يربطوا مصيرهم بمصيرك .. «تردد ادريس ، ثم تابع ، خفيض النظر» : وفي هذا المجال ، يتبادر الى ذهني اسم شخص رزقه الله صفات ممتازة ، وسجايا ، انه مهندس ، وسياسي ، ومتدين ، زد على ذلك انه فصيح حلو العشرة . انه في ريعان الشباب . متحدر من اشرف عائلات المغرب .. ما اظنك سترفضين الزواج من شاب كهذا ، حتى ولو كنت وقفت حياتك في سبيل عمل احسان وتضحية !.

ـ اننا في دنيا كثير فيها الاشقياء الذين يتوسلون ويبكون . فاذا ما نالوا مبتغاهم، داسوا آلام الغير .. قصدي ، في الحياة ، ان ابقى بخيلة بدموعي ، كريمة بالعمل والعطاء . فعقيدتي التي لن انساها ، مهما جدث، تتلخص في هذه العبارة : الاجتهاد في نفع الجنس البشري ، ببذل اجمل ما لدينا .. همنا ان نعمل وان نعطي من انفسنا لسعادة الآخرين .

ـ ما اروع قصدك . انك كثيرة الشبه بفاطمة .. انكما تنتزعان الاكبار والاعجاب .. ولكن لا يمنعك ذلك من ان تختاري الافضل والاجدر .. واعذري اخيراً ، صراحتي ان وضعت لك هذا السؤال : ما هي منزلة عظيم ، في قلبك ؟

ترددت عزيزة واحمرت حياء وخجلا واجابت :

ـ لا اكن له الا التقدير والاحترام . واني واثقة من ان مواهبه وسجاياه كفيلة بأن تجعل من المرأة التي تربط حياتها بحياته ، في منتهى الرغد والرفاه . اما في ما يخصني ، فسأجيبك بمثل صراحتك : لست ضد الزواج ، ولكن لم يحن الوقت بعد لاواجه المسألة . لن اواجهها الا يوم تنتهي مهمتي مع الطفل .

ابتسم ادريس وقال مسروراً :

ـ اذن ، يستطيع عظيم ان يغذي بعض الامل ؟

ـ على رسلك ، يا سيدي ! فهل فكرت في الفروق المجتمعية ؟.. لا تنس انني من عائلة متواضعة ، بسيطة جداً .. الفقر ، يا سيدي ، يبعد عائلتي عن اسرتكم ويجعلهما متضادتين. انسيت اننا في بلد يلعب فيه المال الدور الحاسم في العلاقات ، وانه معيار المعايير ؟

ـ انت مخطئة ! «عظيم» واحد من النخبة التي تسعى بكل الطرق ، وبكل الوسائل ، ان تدوس كل ما تواطأ عليه الناس من طبقية وفوارق في الاصل والنسب .. ان هدفه الاوحد ان يؤسس بيتاً قوامـــه الحب الصادق والاخلاص ، بقطع النظر عن الفارق الطبقي .. ولقد اسر الي ، مدى ما يكنه لك من الاحترام والتقدير و .. من .. الحب ! انه الآن ينتظر جوابك ، بفارغ الصبر ..

ـ فلنترك القضية الى المستقبل .. عندما يشاء الله ..

*

خفضت عزيزة رأسها ، خجولة حيية . وتسرب البشر الى ادريس .. ولماذا لا ؟ فالجواب المترقب اصبح واقعاً يلمس .. نعم ! سمع الجواب ، سمعه بأذنيه ، وعينيه وقلبه ... واستشف ما في رنة صوت عزيزة من

الحزن ، والهوى ، والتغريد ، والامل البسام .. ما اشبه صوت عزيزة بصباح ربيعي : معطر مشمس ... صوت يزيل الغـلة ولا يروي ، يريح ولا يثبط عزيمـة ... اجل ، لقـد حطم الجليد ، واستقامت الخطوة الاولى رسيخة ثابتة ... من الحكمة ان نقف عند هذا الحد حتى نأمن التهور والاستعجال البغيض ... وتنفس ادريس الصعداء وقال لعزيزة :

– تعوز الانسان الشجاعة ليعترف بضعفه، وليقر بأخطائه ، وليقدر امكانات حق قدرها ، ويقيمها ضمن حدودها الواقعية .

– ان رسالة العلم والثقافة ، هي ان نتجند مع الذين يجـاهدون ويكافحون لتعم الرحمة ، وتضمد الجراح ببلسم العطف والشفقة .

– ما ابغض من تلك الزمرة من الاغنياء الذين ينادون ويبشرون بعهود التقشف والتضحية ، وهم في خضم الرفاهية والملذات يسبحون ويغرقون .

*

نظرت عزيزة الى الساعة على الحائط ، ثم الى معصمها للتأكد ، فهالها ان الوقت يجري بسرعـة فائقة . وراح ادريس ، بدوره ، ينظر الى

الساعة على الحائط بدهشة وهو يقول :

ـ من الاكيد اننا نلتقي ، نحن الاثنين ، في مبادىء كثيرة . لقد سمح لنا النقاش ، هذا الصباح ، ان نتعارف فنتصادق . والآن ، يجب ان ننصب على العمل . لكن ، قبل ذلك ، ارى ان احدثك عن موضوع يتصل بعظيم ، وبكل ما يكافح في سبيله .. كنت انوي ان اكتب بحثاً مستفيضاً عن « التظاهر والسفسطة عند المثقفين » .

ـ كما تريد ، يا سيدي ، فلنشتغل ! بيد اني الاحظ انه قد ازفت ساعة الاعتناء بالطفل ، خصوصاً وان لدادا الآن عملا في المطبخ ، وسأعود بمجرد ما ينتهي الطفل من تناول غذائه .

فأجابها ادريس بأن الصباح قد انتهى ، وانه يود استئناف العمل ، بعد الغد على الساعة ٩ . فحبذت عزيزة ، وودعت الاستاذ ادريس ، باحترام ، وقبل ان تخرج ، استوقفها ادريس وقال لها :

ـ هل ستكونين حرة غدا ، ما بين الساعة الثامنة عشرة والعشرين؟ يجب ان نجتمع لأتحدث اليك في موضوع مهم مستعجل .. لا ادري كيف اعبر .. فالقضية ، على كل ، تتعلق بترتيب العمل لبعد غد .. او فلنقل : انها تتمة لحديث هذا اليوم .. اني منتظرك اذن .. غداً .

ـ لا استطيع ان اجتمع بك بعد الساعة الثامنة عشرة . ألا نؤجل ذلك لما بعد غد ؟ حالا بعد الانتهاء من العمل حوالى الظهر ؟ ان ذلك الوقت يناسبني اكثر .

نظر ادريس الى مفكرته ، ثم صرح بأنه يفضل ان يحدثها قبل البدء بالعمل . لذلك يريد ان تحضر عزيزة ، في تمام الساعة الثامنة صباحاً ، واذ ذاك سيعرض عليها كل ما يتعلق بالموضوع الذي يود ان يحدثها عنه .

ـ حسناً ! الى اللقاء ، يا سيدي .

*

اختفت عزيزة وراء الباب .

هجمت على رأس ادريس جيوش جرارة من الافكار والعواطف والاحاسيس ... فاقترب من التلفون ، وحمل السماعة ، وما لبث ان أعادها مكانها ومشى ... وفجأة ، توقف وأسرع بخطى ثابتة ، الى الطاولة ، فأخذ السماعة وطلب رقماً .

*

ـ ألو .. ! ألو .. هل انت امينة ؟ ايه ! تحية يا غزالتي الحلوة ! هل انتم جميعاً على احسن حال ؟ ان كان عمك عظيم بجانبك فدعيه يكلمني .

لا ، لا ! لا سبب للسرعة .. اتركيه حتى ينتهي من الاكل .. ولكن ابلغيه ان يتصل بي حالما ينتهي .. سأنتظر في البيت .. الى اللقاء ، يا غزالتي !

وضع السماعة ، وبعد ان نظر الى الساعة على الحائط ، سار نحو الباب الداخلي واختفى.

☆

الوقت وقت الغداء . ولكن ادريس في حاجة الى المشي اكثر منه الى الطعام . كل شيء بدا له غامضاً مكشراً . الحزن يشيع في صدره ، وقلبه ، ورأسه . هل سبب حزنه انهزامه امام القلق الذي يعصره من ام رأسه حتى قدميه ؟ ما باعث هذا القلق يا ترى ؟

نعم ! لماذا هجم الحزن على ادريس فرماه بألف سهم كلها أصمت ، وأدمت ، واوجعت ؟ .. وصل ادريس في سيره الى الحديقة الغناء ، فإذا هي تبدو له سهولا من الرمال المحرقة .. الزهور الفاغمة ، والمماشي المزركشة لا تبعث فيه اي صدى للجمال ، وهذه الورود الضاحكة الخضيلة ؟ .. وتلك الياسمينة الزاهية المعطرة ؟ .. كم كان ادريس يتعشق الياسمين ! ... والكل يبدو له اكواماً من التراب

الجاف والحجارة الصماء .

*

تابع المسير ، دون ان يلتفت الى ما حوله ، دون ان يرد على تحيات الزهور المتفتحة، او ان يبتسم ليناعة الدوحات وشجر المشمش والسفرجل، وقد مدت له اغصانها ، بكرم وجود . ولم ينتبه حتى لصراخ دادا :

– الغذاء جاهز ! لقد برد الطعام ! ادريس ! اين انت ? لقـد برد الطعام

– قلت لك انني غير راغب في الا كل الآن ! سأتغذى فيما بعد.

وعادت دادا تصيح :

– بسم الله الرحمن الرحيم ! هل اصيب بجنون ? ما ارى ? ها هو يتحدث الى نفسه ، وحيداً ، مشيراً بذراعيه كأحد المجانين ! مالي وله . لقد حان وقت القيلولة.

*

انطلق ادريس يدمدم :

– يجب علي ان انظر الى ذاتي من منظار الواقع المجرد ،بمنظار الحقيـقة العارية ، بعيداً عن الكذب المقيت والمجاملات مع الذات . . . حان

الوقت لامشي في النور والضوء ... يتحتم عـــلي ان انقلب الى انسان حقيقي متفتح العين والقلب على الواقع ... اريد ان اتطور .. نعم !.. اريد ان اماير عـــالم اليوم . عالم ما بعد الاستقلال ، بمفاهيمه الجديدة وقيمه ومعاييره . جيل عزيزة وفاطمة وعظيم ، لا جيل ما بين الحربين .

لم يعد التطور عند ادريس رغبة بسيطة فائشة! لقد اصبح ، في نظره ، فكرة رسيخة ، واعتقاداً ثابتاً ، ووعياً عميقاً متجذراً .

تابع المسير ، وعلى محياه امارات البشر ، كأنه بدأ يصبح انساناً جديداً .

جلس عظيم على الاريكة ، وقد ارتدى قميصاً أزرق ذا كمين واسعين ، واخذ يصغي الى ادريس الذي القى يديـــه وراء ظهره وشرع يتكلم بهدوء وعطف :

– ... انت ، بالطبـــع ، حر في ان تقاسمني آرائي او ترفضها . فالاختلاف في الرأي لا يعني المخاصمة ، إلا انه مـن واجب كل مناقش احترام وجهة نظر محاوريه . فما اظن ان ما تبادلناه ، هذا الصباح ، من كلمات نابية من شأنه ان يعكر صفاء عواطفنا الودية . ألست ابن عمك ، وصديقك الحميم ، واخيراً اخاك الاكبر ؟

– وهل خامرني، يوماً ما ، الشك في صدق حبك واخلاصك ؟ حافزي في معاندة آرائك ليس إلا الاخلاص المتجذر . كل هذا مفروغ منه !.. والآن ، هل اجتمعنا لأسمعك تعتذر وتعاتب ؟ ان اخلاصك عندي بعيد

عن كل شائبة او ريب . ان ما يسوءني منك هو ان تتشبث بالعـــادة الكسيحة والفكرة العاقر .

فرد ادريس بابتسامة المزهو :

ـ لا تنزلق في الخطل . لقد تأملت بامعان مـــا سمعته منك ومن عزيزة ، واستخلصت منه اللب . واني لأشعر ، بكامل السرور ، ان تأملاتكما ستؤثر في تطور آرائي عن الحياة . شعار المثقف الحقيقي هو الآية الكريمة : « وقل ربي زدني علما » . لأن التعلم لا يقف إلا بالموت « اطلب العلم من المهد الى اللحد » . اذا لم نجعل من هذا شعارنا ، وقفنا عن مسايرة عصرنا .

ـ اهنئك ، يا ادريس ، والله انـه شيء جميل . (ثم اضاف عظيم ، وعلى شفتيه ابتسامة تتردد بين الاستعطاف والمكر) : لا ريب انـك تدخلت لدى عزيزة .. وتوفقت في المسعى .. زف الي اذن البشرى .

ـ الواقع .. لا ادري كيف اقول .. لم نقطف الثمرة بعـد .. ولكن الطريق زاهر بسام .. والامل تتلمسه الانامل .

فرد عظيم متشائماً .

ـ ايه .. حتى الآن لم تفعل شيئاً ؟.

– ان مثل هذه الامور .. لصعوبتها ، تستلزم كثيراً من الصبر والحيطة الحكيمة . ففي التسرع الندامة .

تأجج غيظ عظيم . الانتظار ، الصبر ! ولكيلا ينقاد عظيم الى عتمات القنوط ، اخذ ادريس يقنعه :

– اولني ثقتك . لقد ركزت حجر الزاوية متيناً راسخاً . فاياك ان تدك ما تعبت في بنائه وتخطيطه .

– انت تراوغ ، اتحاول ان تسخر مني ؟اذا كنت لا تبغي مؤازرتي ، فلا تغلق الابواب في وجهي ، على الاقل .

– اعدك ، اعدك ان ابذل المستحيل حتى انيلك مبتغاك .

– اشكرك ، يا حبيبي . ولكن عليك ان تباشر العمل بسرعة .. بسرعـة . فشوقي لاهب ، والصبر في صدري يتآكلني . انا متأكد اني سأتزوج عزيزة ، انا متأكد . آه ، انا متأكد ، دون عقل وروية ، بل بحدسي وقلبي . لقد مات في قلبي كل شك . لقد آمنت بهذا الزواج . والايمان ينتصر دائماً .

– كل العشاق يتشابهون ، لا منطق في دنياهم إلا منطق الحب والهوى ، وذلك ما يجعلهم ، احياناً ، ظرفاء وشاذين ، في وقت واحد . يبدو لي ان

الحب اضناك ، انـــه يحرقك ، ويسرني الآن ان اتعرف الى مأساتك الماضية . لقد وعدتني بذلك في هذا الصباح . فالذي يشوقني الى ماضيك هو انه صورة عنك ، اولا ، وثانياً ما ساجد فيه من عناصر ستسهل مهمتي لدى عزيزة .

*

طفق عظيم يروح ويجيء ، وفي قلبه غضبة ، وفي صدره جيشان ، وفي رأسه تردد . اخرج غليونه من جيبه ، وحشاه بالتبغ واشعله . صمت برهة ثم قال :

– كان ذلك في ٢٩ عشت سنة ١٩٠٣ ، عندما ترأست جماعـة من المقاومين ، كان علي تدريبهم ، ورسم الخطط لفئات اخرى كثيرة من رجال المقاومة . لاشك ان بطولاتهم قد انتزعت الاعجاب مـــن جل المواطنين ، ولشد ما قلق والدي على مصيري وحياتي ، في ذلك الوقت ، حتى اصيب بوسواس . زد على ذلك ان والدي عثر ، يوماً ، على صندوق من المتفجرات في ضيعتنا القديمة بـ « زواغا » . ارى ان امر بذلك الحادث مرور الكرام .

فصرخ ادريس ذاهلا :

- زواغا؟ آه اجل، زواغا ؟ هيا ، تابع حديثك ، يا عزيزي عظيم .

- انفردت في الضيعة لأضع تصميما لهجوم ، وفجـــأة وصل والداي يرافقها عماي وشريكهما سعيد . كان الوقت تقريباً منتصف الليل. دخل والدي الى غرفتي ، وتحدث الي عن المقاومة وعن الاخطار التي رميت بنفسي في لهواتها . انها اخطار ستجثم مغباتها على صدر العائلة كلها. وتحدث والدي بعطف وحنان وبحب ، فانكرت كل صلة تربطني باي جماعة من المقاومين . فخرج ولم يلبث ان عاد مـن جديد ، بصحبة عمي وسعيد . وتكررت النصائح الوالدية بحب وحنان ، وتكرر ايضاً انكاري ، ثم طلب عمي الاكبر ، والدك ، ان يختلي بي ليتحدث الي . فاخبرني باني اصبحت خطيب ملكة ابنة الحاج سعيد ، وان سيادة الحاج ، سيهدي لي وللملكة بمناسبة الزواج قسطه من ضيعة زواغا، كما ان ابي وعمي سيتنازلان لنا عن الباقي .

- ملكة ؟ آه ، اجل انهـــا ابنة سعيد ، زواغا ؟ شيء عجيب ، غريب ، غريب !...

- ماذا ؟ واين وجه الغرابة يا ترى ؟

- لا شيء ، لا شيء ، ارجوك ، تابع حديثك .

– لقد ادهشني ذلك الكرم غير المعهود . انك تعرف اباك وابي ، كما تعرف شريكهما سعيد . الكرم ليس من سجاياهم . الواقع انه لولا الظروف ، لرحبت بخطبة ملكة ، إذ كان في قلبي ميل وحب لها . (كف عن المشي . وحدج ادريس ثم تابع) : انفرجت اسارير عمي لانه ظن اني سأنزل عند رغبته . فراح يطري اذعاني للاسرة . وبعد ان تلا علي ما اتى به القرآن الكريم والحديث الشريف من حث على طاعة الوالدين ، قال بجلال : « والدك ، والحاج سعيد ، والعائلة كلها ، قد قررنا ان تتم مراسم الزواج هنا .. بعد خمسة عشر يوماً .. او ثلاثة اسابيع على الاكثر »

فسألته : ما باعث هذا الاستعجال؟ اننا متفقون على المبدأ، لأني احب ملكة ، وهي على ما يظهر ، لا تريد لي شراً . لكن لا بد لها من اتمام دراستها قبل الزواج ، خصوصاً وهي في قسم البكالوريا . وانا كذلك ، من جهتي ، غير مستعد حالياً للزواج .

فأجابني والدك : « لقد عركتني الايام ، فالاحداث التي نعيشها تتطلب الحكمة . اتعلم ان والد ملكة ستجرى له عملية جراحية ، بعد شهر ؟ من اليقين الثابت ان الحياة والموت بيد الله . ولكن ، العاقل من يتدبر العواقب . ان الحاج سعيد مسن جداً . اللهم كبرنا في طاعتك . هيا يا عظيم ، وتزوج ملكة قبل موعد تلك العملية الجراحية . ولا تنس

ان الحاج سعيد شريكنا في كل اعمالنا . فزواجك بملكة سيصون شركتنا واملاكنا المشتركة عن التفكك : انت ولدنا وملكة ستصبح ابنتنا . في زواجك العاجل فائدة كبرى لك ، ولنا جميعاً » .

سكت عظيم ، وشرع يتفحص انفعالات محيا ادريس ، ثم تابع :

– رفضت رفضاً باتاً ان اكون قنطرة لعمليات تجارية ، وان انزل ملكة منزلة البضاعة ، او مثل الضمانة المالية . فغضب ابوك غضبة مجنونة ، وخرج من الغرفة غير مودع لي .

فصرخ ادريس مذعوراً :

– مستحيل ، ملكة بنت سعيد ، و « زواغا » والطفل . ولكن ، اريد ألا أحول دون متابعتك الحديث . انا مصغ اليك .

– وحان دور امي . فدخلت علي تشرق بالدموع الغزار . اتتصور الموقف ؟ ارتمت امي على ركبتي ، وطوقت عنقي بذراعيها . وكلما حاولت تهدئتها ، ازدادت بكاء ونحيباً ... واخيراً تحطم عنادي ... واستسلمت .

– وتزوجت ، اذن بملكة ؟

– نعم ، اسبوعان بعد تلك الليلة الخالدة . لان ابي تدخل من

جديد ، وبكى هو ايضاً واستبكى من جديد .

اخذ ادريس يتلفظ بكلمات متقطعة ، غامضة لا يفهم منها إلا «الطفل» «زواغا» ، «الطفل» ، «زواغا» . ثم ضغط على قدراته عليها تتكاثف وسأل :

- اذن ، حصل الزواج ؟

- بينما كنت في غمرة استعدادي للزواج ، اضطررت الى ان اقطع كل صلة بالمقاومة ، لحين . لكن رفاقي اخذوا يعاتبونني لاني اغادرهم بل وجرؤ بعضهم فرماني بالجبن والخيانة . خائن انا ؟ عقدت مع بعضهم جلسة عمل . لقد كان اجتماعاً صاخباً اطلقت فيه الحناجر اصوات العفاريت .. ونصحني بعض اصدقائي ان ابتعد عن الرباط ، بعض الوقت ، مستغلا شهر العسل ، انا وزوجتي بمدينة «الجديدة» على الشاطىء . ولا اخفي عنك بأن ملكة لم تكن ، هي الاخرى ، فخورة بهذا الزواج الملفق الفجائي . ولكن الحب كان يفيض في قلبينا على ازدهار واشراق . وفي احد الايام ، انبثت ، في سوق «الجديدة» ، بأن الشرطة قد قبضت على رفاقي المقاومين ، وانها الآن تبحث عني جاهدة .

- فظيع !...

– لم يمهلني الرسول الذي حضر من الرباط من لدن المقاومة حتى أودع زوجتي ، بل ارغمني على الصعود الى السيارة وانطلقنا الى «الدار البيضاء» وتوقفنا في الطريق على شاطىء « أزمور » . فلبست ثياب امرأة ، لبستها خجولا مرتبكاً : جلابة ، وحجاباً ، وحقيبة يد .

– ان كل مأساة تتخللها دوماً بعض فترات هزلية ، ثم ماذا ؟

– ولما بلغنا « الدار البيضاء » وجـدنا سيارة اخرى وشخصين في انتظارنا . وسلكنا طريق طنجة فوصلنا اليها اخيراً . والله يعلم كم من صعوبات وشدائد تخطينا في طريقنا .

ما ازال في شك وحيرة .. الامر عجيب غريب . ملكة ، زواغا ، مافتىء العجب يستبد بي .

– فاتني ان اخبرك بأنني تركت على شاطىء « ازمور » ثيابي وساعتي ومحفظة نقودي ، حتى اوهم الشرطة انني لقيت حتفي في حادث غرق فاجع مشؤوم ... فيتوقف البحث عني .

– بالطبع ، ان مدينة « طنجة » موئل سلام ، خصوصاً وانها لم تكن تحت السلطة الفرنسية ، فنظامها كان دولياً .

– كانت طنجة مجرد مرحلة لا غير . فبعد مضي ساعتين من وصولي

اليها ، كنت مضطرا الى ان التحق بشبكة سرية من المقاومين ، مع اول طائرة الى مدريد لكن اوشكت ان اقع في قبضة الشرطة حيث لم اكن اتوفر على تأشير قانوني للخروج من المغرب . فأخفاني رفاقي ، حينذاك ، في قرية من جبال «الريف» ، امضيت فيها اكثر من سنتين ، دونما اتصال بالعالم الخارجي. وقدر لي ، بعض الاحيان ان اقرأ صحفاً قديمة .

ـ وملكة ؟

ـ لا خبر منها او عنها ، عائلتي كلها اعتقدت موتي . فقال بعضهم اني انتحرت ، بينما قال البعض الآخر اني لقيت حتفي اثر حادث مؤلم . اما بعض افراد عائلتي فقد رأوا في موتي نتيجة حتمية لتمردي على قانون الحماية وانظمتها، الامر الذي اشاع اليأس والشلل في حياة والدي وزوجتي بل جرؤ بعض افراد امرتنا ، فراحوا يؤكدون لملكة حقيقة موتي ، ويحرقون كل ما خلفته من مستندات ، واوراق و كتب ، بل حتى اسمي رأوا فيه اشباحاً من الذعر . فكل شيء يذكرهم بي ربما يجعلهم عرضة لاتهامات الشرطة والاقتصاص ، وهالهم ان يحول اثر اعمالي دون حرية اعمالهم التجارية ، وعطف ادارة الحماية .

ـ لقد هالهم ان يصبحوا طعمة لشتى انواع التعذيب والاضطهاد ..

السجن والتعذيب ، بالنسبة لابيك ولأبي والسعيد ، موت محقق ، لان عمرهم ..

ـ طبعاً، انهم مسنون جبناء، ولكنهم كانوا أيضا يخافون ان يجابهوا الخالق تعالى وكفنهم مبلل بعرق بؤساء عهد السوق السوداء. فأمام الله الحساب صعب، وقد خفت موازينهم !

✲

اخذت نعرة التعصب للأسرة تعـاود ادريس ، ولكن فطن بأن الموقف لا يسمح بشن غارة دفاع ، فاكتفى بأن نصح ابن عمه :

ـ لا تندفع هكذا، فتجرفك المغالاة الى الحقد ، حقاً ان في ماضيك ذكريات تفيض ألمـاً ، وتبعث على الغضب .. ولكن هل تجيز لك الكياسة والادب ان تتقيأ على عائلتك مرارة ذلك الماضي العاتم؟..عد إلى رشدك ، يا عزيزي . ولكن ، كان مـن السهل عليك ان تكتب ، من ملجإك الى زوجتك والى والدك ؟

ـ لا . لم استطع ذلك . كنت ، في نظر بعض الوطنيين « جبـاناً » و« خائناً »، ورأى الشرطة في فدائياً خطراً ، من الواجب قتله مع كل رفاقه ومعاونيه . فجميـع الرفاق الذين اعانوني على عزلتي في الجبال، القي

القبض عليهم واعدموا حالا ، بقسوة . فمن يجرؤ والحالة هذه ؟

تنهد ادريس ، وحوقل ، ثم اخبر ابن عمه انه كان في الايام العصيبة ، بمصر ولكنه تتبع الاحداث بواسطة محطة « صوت العرب » والصحف ، فشاطر الشعب آلامه ، عن بعد . ثم اضاف عظيم :

– ان ملجإي في جبل الزيف ، كان في الواقع منفى . فجبهة التحرير بالشمال كانت تجهل الكثير عني ، لهذا نفوني الى ان حصلوا على معرفة برؤساء الفرق كلهم . فعمدوا الى تسليط الاضواء الكاشفة على صدق نيتي ، وصفاء هدفي .

– وهكذا تعقدت الامور .

– لم استطع ان اترك منفاي لاحضر الى بلدة « وجدة » ، إلا بعد مضي بضعة شهور على عودة صاحب الجلالة محمد الخامس من منفاه بـ « مدغسكر » . وهناك ، في « وجدة » بلغني النبأ المشؤوم الفاجع . يا للفظاعة ، ياللرذيلة الفادحة ! . . .

*

شاع الصمت في المكتبة ، وكأن ادريس هاله ما سمع فارتد الى نفسه يسبرها ، واجماً متزعزعاً . اما عظيم ، فقد شرع يرتجف كمن أقلعته عاصفة

هوجاء ، واستبد به إعصار حرون . اطبق عينيه يهرب من اشباح تفغر اشداقها لتبتلعه . وعض على شفته العليا ، وتشنجت يداه ، وتابع :

– اجل ، انها لمصيبة كاسحة . بترت ساقي ، واقعدتني على لهيب السعير تداخلني القنوط ، واسودت في وجهي آفاق المستقبل . لقد رأيتني غريباً في وطني ، وفي المدينة ، حيث اكتحلت عيناي بالنور والضياء واضحى الناس كلهم اعدائي ، يبغون خنق ما تبقى من نسمات الحياة في صدري . حتى نفسي خفيت علي ، وتردت في طبقات من الجهل الصفيق واليأس الزازح . (سعل عظيم ، بعد ان مسح دموعاً ساخنة في مآقيه) : تمرست طيلة فترة المنفى بعناد ، اترقب ساعة الفرج . كم تساءلت وكررت : متى يعود الملك الشرعي الى عرشه ، وارجع انا الى ملكة ؟ قريباً ، قريباً ، ان شاء الله . نفحني ذلك الامل المشرق بالسعادة ، في زمن النفي والهجران : الاستقلال ، محمد الخامس ، ملكة . نعم ، ان ارى واجتمع بملكة وبوالدتي ... ملكة والرفاق والاصدقاء ... وطني حر ، متى يا رب ؟

*

ترقرق الدمع غزيرا من عيني عظيم . هي دموع الذكرى والاحزان ، والعاطفة الجريحة ، وهي ايضاً دموع الثورة المرعدة المدمنة ... ود

ادريس لو يدرف هو كذلك الدموع ،لتعيد اليه حرية الانفاس. ولكن توالت دفقات الدماء في شرايينه،فارتفع ضغطها ، وعلت في اذنيه اصوات دوي هادر مزعج ، وثقلت اجفانه ، وحار الضياء في مقلتيه : انه لا يبصر حتى عظيم الواقف امامه . مرت فترات ، ثقل فيها الصمت ، ورزح على العقول ، واشتد فيها التردد والخوف ، فأطبقا على تسرب الانفاس من الصدور ... وانفلت ادريس ، اخيراً ، من الصمت الرهيب المرعب ، فقال بصوت اجش سالت الفجيعة في نبراته :

ـ اعرف .. النهاية .. النهاية .. لا تبك يا اخي عظيم .. لا تبك.

ـ انت على علم بالموضوع ? اذن كيف تعمدت الانكار في هـــذا الصباح ?

ـ لقد قصت علي عزيزة حكاية الطفل ، بعد ذهابك ... وهكذا عرفت بعض نواحي مأساة ملكة ، وكنت اجهل كل صلة بينك وبينها . واستطيع الآن ان اتفهم القضية ، بجلاء اكثر ، بعد معرفتي لابطالها الحقيقيين .. ثم اني اعرف ملكة ، اذ طالما ذهبت في حداثتي الى بيت الحاج سعيد .

*

صمت ادريس ، برهة ، ثم تابع بعد ان هز رأسه :

– ولكن الامر الذي لا افهمه ، هو زواج ملكة الثاني ، دونما احترام مهلة الانتظار الشرعية . فنبأ موتك كان متقلقل المصدر، مشكوكا في صحته . من الثابت ان ذلك الزواج مناف للشريعة .

– لا تنس ان ضمائر بعض القضاة والحكام تضعف امام سلطة رجال التجارة وعبادة الدراهم والفرنكات . فاذا تكلم المال ، ارغمت الشرائع على الصمت والسكوت . هذا سبب ابتعادي عـــن المغرب وتفضيلي الدبلوماسية على مهنة المهندس .. وفي النهاية ، اصلحت ذات البين بيني وبين والدي وعائلتي . ولكن ، كل هذا لم يرجع ملكة الي .

– لقد انبأتني عزيزة بان ملكة سيقت الى الزواج الثاني مرغمة . وقد حاولت عبثاً ، دون اجراءاته ..

– شيء مخز ، والله ينتابني القرف وانا اتحدث عن تلك الامور .

*

امتلأت حدقتا عظيم بالدموع الاليمة الساخنة ، واستحوذ التأثر على ادريس ، فراح يمسح وجنتي ابن عمه . ثم قال ، بصوت ينبعث عن حنان وتأثر :

– انك ما تزال تنعم بالشباب الخضيل وأمامك الحياة زاهية وضاءة .

ففي مقدورك ان تؤسس بيتاً سعيدا شريفاً .

– ان مصدر عزائي الوحيد ، وسعادتي ، هو ما سمعته من ان ملكة تعيش في اجواء الرفاه والسرور مع زوجها الثالث .. كل ما اتمنى ان يكون ما وصلني مطابقاً تماماً للواقع .ولا يبعد ان تكون عزيزةتعرف اشياء كثيرة عن زوج ملكة ، لانها مربية الطفل ، ومن اليقين ان عزيزة تلتقي به احياناً .

– زوج ملكة هو شقيق عزيزة ..

– ماذا ؟ أأنت صادق في قولك ؟..

– نعم ، نعم (ونظر ادريس الى الساعة وتابع) : لي موعدالآن مع طبيب الاسنان ، ويبدو انني تأخرت كثيرا .. عند اول سانحة ، ساحدث عزيزة في شانك .. واقسم لك بالله اني سابذل اقصى جهدي ، بل ساخلق من المستحيل واقعاً . ثق بانني ساصبح المحامي المخلص لك ، حتى تحقق رغبتك و .. فانت بلا شك خليق بحبها (وتعانق الرجلان) وازاء وعدي لك ، عليك انت ايضاً ان تعدني ..

فاجاب عظيم متكلفاً الابتسام :

– الطبيعة تغلب التطبع ، يريد مقايضة،لان اسرتنا علمتنا الا نعطي

إلا بعوض . فعلى السمع والطاعة .

- عدني باحراق رزمة جزائدك .. اي ما رزمته فيها ..

- اعدك، في هذا المساء سيكون المسدس في قعر وادي «ابي رقراق» .

- اطمئن ، اياك واليأس يا عزيزي .

- شكراً ، يا ادريس . الى اللقاء .

وتصافحا من جديد ، وتعانقا .

الفصل السادس

لف مجموع الغرفة هدوء ثقيل ورهبة موحشة . فهتفت كل جارحة ، عنـــد ادريس ، تمتص هدوءاً لا يشبه صمت الكتب والمجلات المنتشرة على الطاولة وفوق الرفوف ، مليئة بالافكار الغالية الكسولة التي لا عصب يحركها ، ولا حياة تنضج فيها . كم من وقت مر على ادريس وهو في ذهوله ؟ واخيرا ، تخطى دنيا الحركة ، ودبت الحيوية في ذراعيه يؤرجحهما ، وكتفيه يهزهما ، واصابعه يحركها ، وحاجبيه يقطبهما . انه مــن ابناء البحر الابيض المتوسط ، يعبر بمجموع عضلاته بقدر ما يعبر بالكلمات ، بل ربما اكثر . اصبح كل جسم ادريس مسرحاً للحيوية والتامل .

رجع ادريس الى الوراء ، وتدرج ، رويداً رويداً من جداله مع فاطمة ، ثم مع عزيزة ، حتى انتهى الى عظيم وهجوه للمثقفين وطرق حياتهم ونظرهم

الى الحقائق والمجتمع ... ولاح لادريس مدى تأثره بكل تلك المجادلات والاحاديث ... هو المثقف الكبير يتأثر بسيدتين انطلقتا من محتد وضيع فقير ، ليس لهما من العلم والثقافة إلا بعض القشور . وهاله ايضاً ان يذعن ، بسهولة وطواعية ، لعظيم الذي هو اقل منه سناً وشهادات وخبرة حكيمة واعية ... لقد تعددت اسفار ادريس ، وتكدست ملاحظاته ، وتشعبت مطالعاته ... ولكن الملاحظة لا تعني نفاذ البصر ، كما ان القراءة لا تعني التفهم والهضم .

غرق ادريس في كرسيه الكبير ، واستسلم لخياله واحلامه . وسرعان ما صادمته موجة في اعماقه ، موجة الكبرياء الجريح . لقد راح يشك في ما حوله وفي شخصيته ... ضاق ادريس بالتردد يعصف به ، وعبثاً حاول الافلات والتملص . انه امام نفسه عاريـــا بعد ان ازيح كل حجاب . وثقلت عليه وطأة الصمت الرهيب ، فتمنى لو تلفه اصوات اقوى حدة وعزماً من حناجر الجن والعفاريت ... وتراءت امام ناظره صور ورسوم غريبة ، تروح وتجيء ، متتابعة متدافعة متداخلة ... وبعـــد استعادة وعيه ، بدأ يلج عالم اليقظة .

المرحلة الاولى :

المنجد الشيخ يجلس الى دادا يثرثران ويستعيدان ذكريات تمتد حتى

مطلع هذا القرن ، بل الى اواخر القرن الماضي ، عندما كانت الحياةدونما تعقيد ، والفراش بدون نوابض ، والاولاد يطيعون ذويهم ...الله يأمر في عليائه والوالد في عائلته .. ذلك زمن رغيد سعيد .. وها ، دادا ، تفيض فرحاً ، اذ قدر لها ان تتحدث مع شيخ جليل وقور يترحم على السنوات الماضيات ويستطيع ، هو ايضاً ، ان يلملم بعض ذكرياته ... انه يتذكر ، بدون شك « عام الجراد » . ويذكر كيف إفاق في صباح احد الايام ، ورأى السماء قد غطاها الجراد ، لقد امتلأت به ارجاءالمدينة حتى الاكتظاظ . انها مصيبة هوجاء ، لعنة من الخالق تعالى ، ومن اولياء الله الصالحين . وتخرص بعضهم حينذاك بأن انتشار الجراد سببته حروب « الروميين » . فالحيوانات الصغيرة هربت ولجأت الى بلادنا ... « تبأ لك يا سنة الجراد ، ما اطلع وجهك،واشنع ذكرياتك !.. وفي تلك السنة المشؤومة ، ايضاً ، مات جارنا الحبيب الوديع الحاج قاسم وزوجته البارة الحاجة عائشة،عمةوالد ادريس»...سكت صوت دادا، ذلك الصوت الذي يختلط فيه التنفس والشخير ، الصوت الذي ينطلق من قفص صدر مليء بالمفاجات والاسرار .

*

المرحلة الثانية :

اي شيء يقوله الساعي العجوز للساعي الشاب الذي يحفظ القانون عن

ظهر قلب ؟ ليس من شبه ، بين هذين الجيلين من الناس ، إلا ما يخلقه اللباس الرسمي ، رغم ان بزة العجوز سملة متهرئة ... لا شك انهما يتحدثان ، في اغلب الاحيان ، عن شؤون زملائهم المستخدمين ... الرقم الاستدلالي ، والمرتب الرسمي داء يذهب في عرض وطول جسم البلاد المغربية منذ الاستقلال ... داء يتأكل عقول الشيوخ ، والكهول ، والشباب ... الشبان من كلا الجنسين ... المباهاة بارتفاع الرقم الاستدلالي هي الخطر الفادح .

*

المرحلة الثالثة :

والشرطيون الثلاثة ذوو الشوارب ؟ هاهم يفورون حماسة واندفاعاً ، فيبدون تارة لطفاء ودعاء، وطوراً قساة،دون ان تنقصهم الارادة الحسنة، في كل الاحوال . حول اي محور تدور احاديثهم في ساعات الفراغ ؟من الممكن ان يقتلوا الوقت في « لعبة الورق » الحافلة بالتسلية والمتع ... ولكن في نفوسهم، مثل غيرهم ، بوادر تطلع الى فوق ... وهكذا نلمس تفشي خطر « الرقم الاستدلالي » ، في كل مكان . انه الطلسم السحري السريع المفعول .

المرحلة الرابعة :

تخيل ادريس فاطمة واقفة امام وسادة والدها . ولكن ادريس يضيق ويقرف من رائحة روح الحوامض ، ومن رؤية الطاولات البيض والمرابيل النصيعة . اما صوت صفارة سيارة الاسعاف المزعج الحاد ، فقد يصرعه كمن عصف به تيار كهربائي . فأسرع يطرد من خياله كل ما يذكره بالمستشفى والمرض ليبقى مع صورة فاطمة الحلوة . ورآها تبتسم حرة طليقة ساخرة تفيض شباباً وتشع بالآمال الفساح . انها المستقبل الزاهر البسام ... قد تبادلت ، في الصباح ، مع المنجد الشاب بعض النظرات الحبلى بأشياء انطوت على بشر وعطف . ولماذا لا ؟ فالمنجد شاب حلو الشمائل . ربما يصبحان زوجين سعيدين .. انهما شرارتان .. وابتسم ادريس .. ما الذي يسعى اليه يا ترى ؟...

*

المرحلة الخامسة :

عزيزة ...

عظيم ...

ولكن هل سيتزوج عظيم عزيزة ؟ سيكونان اسعد زوجين على

الارض . انبسطت اسارير ادريس . وقهقه ، كمن فاز في مباراة استنزفت جهوداً لا تقاس . ولكن المرحلة الاخيرة من المباراة لم تبدأ بعد . يجب ان يجتمع عظيم بعزيزة على حلبة واحدة . ثم الاجتماع شيء ، والزواج شيء آخر ... سمع ادريس ، داخله صوتاً يؤكد ان ذلك الزواج سيتم . اذن ، على عظيم ان يحسن لعب دوره ، وسيجد في ادريس رفداً مكيناً . اما قطع على نفسه عهداً بذلك ؟ وتهلل ادريس للنصر .

ولكن سرعان ماسرى الى ادريس الحزن والغم ، بسرعة البرق : لو سعى وانتصر ، هل يستطيع ان يضمن رضى وموافقة عمه ، والد عظيم ؟ ووالدة عظيم ؟ ورؤساء الأسرة أصحاب السلطة والنفوذ ؟ أليسوا عبيداً للتقاليد والنفعية التي ترفض مثل هذا الزواج ؟ انهم لن يغفروا ابداً لادريس مساهمته في تلك الصفقة الخاسرة : ليس لعزيزة جاه ولا مال ، فكيف يقبلونها ؟ كل شيء في هذه البلاد يتضخم ، ويتكثف ، ويلبس التعميم دونما تبصر ... اجل ، لا شيء إلا ويعلم به الجميع ، ثم لا ينسى ... واي هوة سيزج فيها ادريس ذاته ، اذن؟ وهل يطيب له ان يفقد تقدير واحترام الاسرة ، وان يرمي بالوقاحة ونكران الجميل ازاء أعمامه وعماته ؟ ان والده في موضع الرأس والقلب من الأسرة البعيدة

عمه ! وفي دفاع ادريس عن عزيزة سيرى القوم دفاعاً عن العمال ، وعن النقابات ، على اختلافها ... وهكذا يبعد ما بينه وبين مصالح العائلة ، فيدوس على تقاليدها ويتنكر لنواميس دينها ... إذن سيقولون : هو شيوعي !...

*

تحلب العرق البارد من مسام جسمه جميعها ، وأحس بقميصه تلتصق برقبته . واضحى جسده مشدوداً صلباً ، مثل لوحة من الخشب . وتدفق من عينيه لهيب الحقد المرير والغضب . وعبقت في أنفه رائحة الخبث والمراوغة ، من الكتب والمجلات ، من الخوف والغبار ، ومن أجواء الغرفة كلها ... وعصفت في داخله أشباح الألم ، والحزن والتشاؤم . إذن ستتهمه العائلة ، فتدعوه شيوعياً ، وهو الذي يعيب فيه أصدقاؤه ورفاقه حياة البورجوازي المتخلف عن ركب الحضارة المتنكر للجديد المضيء من العقائد والآراء والأهداف ! ما أقساك ، يا اقدار ! وما أظلمك يا زمن ! ولكن ما همه لو أن العائلة ابعدته وزجرته ، ما دام مؤمناً

بأن فعلتها تلك خطأ فادح وجهل صفيق ؟ أما يحق له ان يتمتع بحرية المثقف الذي يبحث عن رسيخ الآراء ، في دنيا الجمال والحقيقة والصدق ؟ ان تغضب عليه العائلة او تصفح ، ذلك عنده سيان ... فعائلته هي المغرب كله ، ووطنه الأرض ، في طولها وعرضها ... ولكي يكسب لقمة الخبز ، ليس عليه إلا ان يفعل مثل الكثير من ابناء امته : أن يرضى بالضروري ، باذلا اقصى الجهود ، مضحياً بكل غال ونفيس ... ولن يخجل من العمل ، مهما كان ، ما دام يوفر له لقمة الخبز من عرق الجبين ومن قلب عامر بالصدق ، والشرف والاخلاص .

سيكون حينذاك حراً ، مستقلا ! فالاستقلال لا يعطى ، بل يؤخذ غلابا . اما هدفه فيتلخص في : « أن اكسب رغيفي من عرق جبيني ، في حياة حرة ، لا تكبلني مصالح العائلة ، واصفاد التقاليد . ضمان حرية معتقدي وافكاري ، هو احتقار كل محسوبية او زور .

*

للمرة الثانية ، ضاق صدر ادريس بالصمت المرعب الرهيب ، فشرع

يبعده ، بالتحدث مع نفسه بصوت مرتفع . وراح يردد : « وداعاً يا عهد الخوف والاذعان الابله ، سأشق طريقي في الحياة على دروب الحرية الطليقة ، والفكرة المستقلة الوضاءة . ساحطم سلاسل العائلة ، وسأجتث كل جذور الجهل والموت من هيكلها . سأحطم التقاليد الموروثة البليدة العمياء ! فالمغاوير الشجعان لا يهابون خوض غمار المعركة ... لماذا جرؤ عظيم ولا أجرؤ انا ، فاستبسل واصمد ؟ ... ومن عزيزة سأخلق المثال والهدف » .

ما كان ادريس قط شحيحاً بالكلام ، لهذا لن يضن على ذاته بما يقومها وينير لها الطرق :

« ليس لي ان اختار ، بل هناك واجب محتم مقدس يرغمني ان ارى الضياء ، واريد ان اهرول إلى الهدف دونما نكوص . من المخزي ان ابقى نكرة في دنيا الفكر اجتر انظمة وتقاليد لا احياها . والويل لي إذا بقيت قابعاً في زاويتي ، غريباً في مدينتي ووطني !... لن يشرفني، بعد الآن ، ان ابقى بين جدران غرفتي امضغ الاحلام والخيالات ،

بينما الناس في الخارج يقتلعون الحواجز ، ويتطورون في كل لحظة ...
اريد ان اوقف عزمي وجهودي على تقدم امتي وتطوير بيئتي ... اريد
ان انحني على جروح اخوتي البشر ، فاضمدها وابلسمها خالقاً منها الرفاهية
والازدهار »

*

كان العرق يتصبب من مسام ادريس غزيراً . وسئم من قميص
« النيلون » يلتصق بظهره بشدة ، وتجمعت حبات العرق الباردة على
جبينه ، فسالت على وجهه مدرارة . فطن فجأة إلى انـــه لم يتناول
طعام الغذاء . فنادى على دادا لتهيأ له كأساً من الشاي ، تعيد اليه قواه .

*

عادت إلى ادريس هواجسه :

« لو ألزمت نفسي بالجديد من الآراء والأهداف ، ووقفت إلى
جانب عظيم وعزيزة .. كيف أدبر كسب الخبز ، وأجابه متطلبات
الحياة ، ربما اجد عملا ؟ ... »

واسكتت الهاجسة الكسيحة فقال :

«تباً لي من جاهل !.. لم تقل عزيزة كلمتها الاخيرة ، حتى الآن .»

*

أرخى العنان لافكاره ...

عزيزة وعظيم ، اسمان ما اقربهما شبها واهدافاً ، وما اصفاهما عقلا وقلباً . انهما يمثلان انسانين جريئين مندفعين نحو حياة زاهية...

هل سيربط الزواج بين قلبيهما ؟...

لا شك في ذلك ، يوم تنتهي «مهمة» عزيزة ...

سيتم ذلك الزواج !عظيم له من العزم ما يضمن له النصر... ولم لا ؟

أليس معنى اسم «عظيم» الفخر والقوة والرفعة؟...

عظيم (ع) ، عزيزة (ع) !... عينان عريضتان منفتحتان على مصير كله آمال وغموض ... عينان :

ع ... ع ... ع ... ع ... ع ... ع ... ع ... ع ... ع ... ع ...

عزيزة ، عظيم ، عزيزة ، عظيم ....

ع. ع..

اغلق ادريس جفنيه ، ولكن عيوناً حية تدمع وتبتسم احتلت عالمه :

ع ٠ عـــ ٠ ع ٠ عــ ٠ ع ٠ عـــ ٠ ع ٠ عـــ ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

عيون ترقص أمام بصر ، عيون تساقط من أعلى ، ومن ذات اليمين ، ومن ذات الشمال ... ها هي تتكاثر ، مبتسمة ، غاضبة ، مستعطفة ، مؤنبة ، حبيبة ، قاسية : ع ٠ عـــ ٠ ع ٠ عـــ ٠ ع ٠ عـــ ٠ ع ٠ عـــ ٠٠٠٠

يبس حلقوم ادريس ، وفتح عينيه ، وحركهما مرات سريعة متتابعة.

*

فاز عظيم ، حتى الآن ، في ميادين عديدة : انتصر ، اولا ، على ذاته عندما داس على جثث التقاليد العمياء ، والنظم البالية... وما هاب ان ينحدر الى دنيا الفقراء والسذج والكادحين ، ويجلجل السوط في وجوه المتسلطين المرفة . انه بطل من ابطال العقيدة والمبدأ ... ومن ابطال المقاومة لتحرير الوطن ، فخره انه بلغ دنيا الحقيقة ، بجهوده دونما رفد ومعين .. ألم ينطلق عزم الابطال الذين بدلوا وجـــه التاريخ وساقوا الانسانية في مراقي الحضارة والعمران ، من دركات الاخفاق ؟

*

هل سيتزوج عظيم بعزيزة ؟

ولماذا لا ؟... عندما ستنتهي من مهمتها لا بـــد ان يتزوجها عظيم ...

من انتاج المؤلف

1 – بالعربيـــة :

– **مفكرو الاسلام** ، الرباط ، مطبعة الأمنية (نفد)

– **بؤس وضياء** ، بيروت ، عويدات (يعاد طبعه)

– **من الكائن إلى الشخص** ، (دراسات في الشخصانية الواقعية). ج 1 ، القاهرة دار المعارف .

– **الشخصانية الإسلامية** ، القاهرة . دار المعارف .

– **جيل الظمأ** ، (رواية)، بيروت ، المطبعة العصرية . (يعاد طبعه)

– **العض على الحديد** ، (مجموعة قصصية)، تونس ، الدار التونسية للنشر .

– **من الحريات إلى التحرر** ، القاهرة ، دار المعارف .

– **من المنغلق إلى المنفتح** ، نقله عن الفرنسية محمد برادة (القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية).

– **اكسير الحياة** (رواية مستقبلية) القاهرة ، دار الهلال .

– **المعين في مصطلحات الفلسفة والعلوم الإنسانية** (فرنسي – انجليزي – عربي)، الدار البيضاء ، دار الكتاب ، ج 1 .

– **تأملات في اللغو واللغة** ، تونس – طرابلس ، الدار العربية للكتاب .

2 – **بالفرنسيـــة** :

– **أغاني الأمل** (شعر) نفد .

– **بؤس وضياء** ، الطبعتان 1 و2 ، باريس ، أوزفالد . الطبعات 3 ، 4 ، 5 ، الدار البيضاء ، دار الكتاب (يعاد طبعه) .

– **من الكائن إلى الشخص** ، (دراسة في الشخصانية الواقعية). باريس، النشرات الجامعية الفرنسية . (ط 2 ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع).

– **أحرية أم تحرر ؟**، باريس ، أوبيي– مونطين (2 ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع).

– **من المنغلق إلى المنفتح** (عشرون حديثا عن الثقافات الوطنية والحضارات البشرية) الدار البيضاء ، دار الكتب (الطبعتان 2 و3 ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع) .

– **عالم الغد** ، **العالم الثالث يتهم** (دراسة عن الغدية) الدار البيضاء وشربروك (كندا). غلاف من ريشة محمد القاسمي .

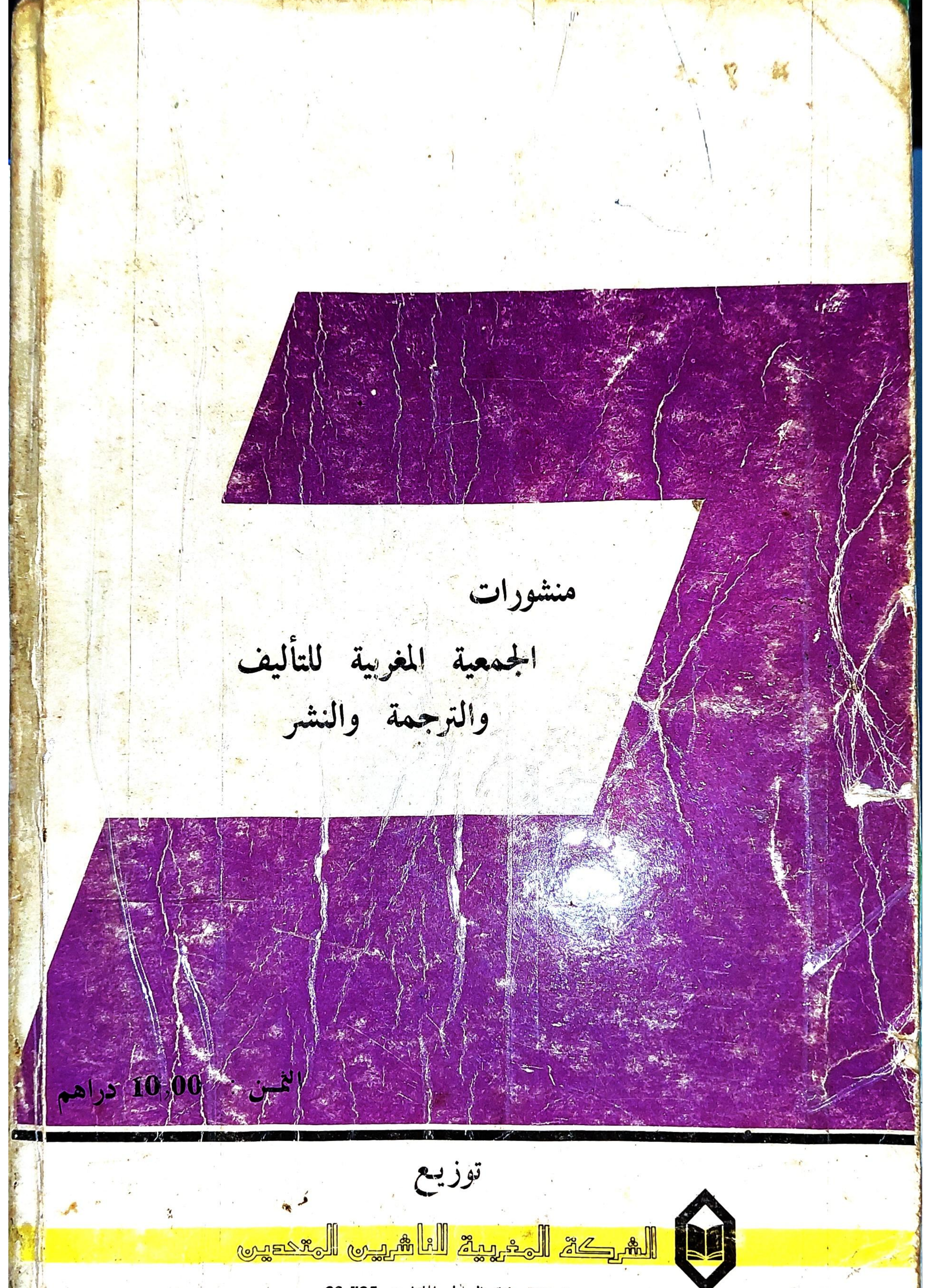
– **العض على الحديد** (قصص) ترجمه عن العربية موريس بورمانس (باريس– الدار البيضاء). صور فنية للعربي بلقاضي .

– **الشخصانية الاسلامية** ، باريس ، المنشورات الجامعية الفرنسية .

- **مختارات من الشعر العربي والشعر البربري** ، فرنسا ، منشورات الصداقة عن طريق الكتاب .
- **صوتي يبحث عن طريقه** (قصائد) باريس ، سيغيرس (يعاد طبعه) .
- **ابن خلدون** ، (في سلسلة : فلاسفة كل العصور) باريس ، سيغيرس .
- **الضائعون** (سيناريو)
- **الأمل الشارد** (رواية)، فرنسا، الصداقة عن طريق الكتاب (يعاد طبعه)
- **آلام بإيقاع** (ديوان للشعر العربي والبربري) ، ج 1 . «فتح في موعد مع الأمل» و«الجزائر في موعد مع النهضة»، ج 2 «شعر بأصوات متعددة» الشركة الجزائرية الوطنية للنشر والتوزيع .

  صدر عن «السيمنار» الذي كان يشرف عليه الاستاذ الحبابي (جامعة محمد الخامس) .
- «**مصطلحات فلسفية**» (عربي فرنسي) .

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء


منشورات
الجمعية المغربية للتأليف
والترجمة والنشر
الثمن : 10,00 دراهم
توزيع
الشركة المغربية للناشرين المتحدين
3 زنقة غزة الرباط الهاتف : 23.725
11 زنقة بوانكاري الدار البيضاء الهاتف : 26.20.72